وبك اكتفيت

أحمد البسيوني

وبك اكتفيت

أحمد البسيونى

تدقيق لغوي : عبدالله أبو الوفا

تصميم الغلاف : عبير محمد

رقم ايداع: 2018/2147

ترقيم دولي: 978-977-6594-27-2

دار فصلة للنشر والتوزيع

العزيزيه - منيا القمح - مصر

٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١

fasla.pub@gmail.com

FB .Com/Fasla .Pub

فصلة للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الاولي يناير ٢٠١٨

فصلة للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

وبك اكتفيت

أحمد البسيونى

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

إهداء

أهديك كتاباتي أيها الكاتب الصغير.. يا من أقسمت يوماً على أن تصل.. يا من لولاك ما كنت هنا.. يا من أصررت وثابرت.. يا من جاهدت واجتهدت.. يا من كُنتَ أنا يوماً كما لم أكن أنا من قبل.. يا من أخبرتني أن الدرب طويل، ولكنك كذلك بقيت بجانبي طوال ذلك الدرب.. يا أيها الطفل الذي لم يفارقني حتَّى اللحظة.. أخبرك أنني فخور بك.. وأننا وصلنا.

شكر

شُكري للسحاب الذي رعاني حتّى تساقط الندى منّي.. إلى من بالحب غمرُوني وبجميل السجايا أدّبوني إلى أبي وأمّي.. حفظكم الله وأبقاكم لناظري.. ثم شكري لذاك الوعاء الذي استوعبني.. لتلك الوردة التي كنت وهي معاً كاتحاد النجوم في السماء.. وأخيراً وليس آخراً، شكري لتلك الروح السامية.. لذلك الشخص الذي كان عمادي لحظات السقوط.. ومن بين الناس جميعاً، أنت تعلم يقيناً أن هذا الكلام موجّه لك.. بلا اسم، ولكن دعني أخبرك أنك ستشعر به حين تقرؤه..

مقدمة

هل أنت ممن يعشقون حين يموتون؟ أم أنك ممن يموتون حين يعشقون؟
فقد ظلَّ ذلك السؤال ملازمًا له كظلٍ مستتر وراء صفحات الماضي وظلَّ يقتله في نوبات المستقبل، وكانت إجابته صريحةً واضحة لا غبار عليها سوى إحساس الشوق ولهيب الاشتياق .
كانت إجابته صارمة قاتلة وهي أن الحب هو الموت لا يجتزأ أحدهما عن الآخر ولا يفر أحدهما من معقل الآخر .
يعلم جيدًا أن الحب هو وجه من أوجه الانتحار لكنه فضل أن يخوض تلك التجربة وظل راهبًا في حضرة وعوده وغض طرفه عن متلاحقاتها القاتلة فربما أدمن حبيبته وربما قد مرض بعينيها ذلك المرض الذي لم ولن يجد دوائه مهما طال الزمان إلا باللقاء، أو لا هذا ولا ذاك هو بالتأكيد قد عشقها .
وما ذلك العشق الذي نقترفه حتى نموت وأي عذاب لذلك الشيء الذي يدعى "الحب"؟
الحب هو خدعة الحياة ومتعتها الفانية فما بعده أما فراق في الحياة أو فراق للموت فلا مفر، الحب هو اللا إحساس واللا شعور فالحب تلقائية الإحساس بعيدًا عن سلطة العقل، وهو درجة في منتصف الطريق إلى الزهد والتقديس .
لم يكن يعلم يوسف كل هذا ولم يتعرض لذلك الشعور سوى مرة وحيدة حين وجد مريم في طفولته ووجد مفاتيح قلبها ومتجه قبلتها، فلم يعشق غيرها ولم ير سواها ولا يعلم الحب إلا فيها ولا يستهويه العشق إلا في حضرة وجودها .
فنحن في حقيقتنا لم نختر أقدارنا إنما نولد بتلك الصورة التي وجدنا أنفسنا عليها في الحياة، تراودنا أفكار مجهولة دائمًا، ولكن تبقى الحقيقة الوحيدة التي تظهر حين يُنتزع القلب منا فجأة ولا ندري لماذا يختارنا القدر؟
حين تتعلق بشخص لدرجة تعلو عنان السماء، تتشبث به وكأنه نصفك الآخر، تعيش له ويعيش لأجلك ويبقى السبب الوحيد للحياة، هو روحك وقدرك وعنوانك الأبدي،

ما أصعبه من شعور!
ويبقى النسيان هو آفة الحب، فهل سينسى موعد اللقاء أم أنه سيظل ملتزمًا بميثاق حبه أم أنه سينسى حبيبته تبعًا لحتمية القدر القاهرة؟
ويبقى أيضًا ذلك السؤال الملعون، لماذا يختارنا القدر؟
فأنا في عالمي المجهول أتعذب لفراقك، وأنت في عالمك المشئوم تموت لفراقي، ويبقى الحب .
يبقى ذلك الشعور الجنوني، بل ذاك الشعور القاتل الذي يصيبنا ولا ينتهي إلا بخروج الروح من الجسد، ويبقى بعدها ذكرى غائبة كالشمس لحظة الشفق .
هكذا هو الحب في كينونته ورمته، هو مؤلم بفطرته، هو الحب دومًا ما يقتلنا ودومًا ما يجعلنا نشعر بإحساس بعيد عن ثكنات الواقع، إحساس لا يقبل الحدوث إلا في الحب فقط .
فربما كان لقائنا صدفة، ومؤكد أن فراقنا محتوم فلا مفر .

سأذكركِ ما دمت أحيا .

ظلام دامس يعم الأرجاء، يتخلله بعض الأضواء الهادئة الدافئة التي تُهدئ من روعه قليلًا، يسير وحيدًا تائهًا في ذلك الممر الممتد، يستمع إلى ضربات قدميه على تلك الأرضية الخشبية، أجواء مفزعة بعض الشيء يغمره إحساس الوحشة والقلق، يرتدي يوسف كوفيه تُغطي معظم رقبته، شعره طويل داكن السواد، مرتدي نظارته يُعدِّل من موضعها بأطراف أصابعه وأخذ يدقق النظر ويتحقق من تفاصيل ذلك المكان الذي لايعلم عنه شيئًا ولا يدرك سبب وجوده فيه .

أصوات أجراس الكنيسة تخرق مسامعه حتى يضطرب، فيتصلب في مكانه أخذًا أنفاسًا سريعة يحاول بقدر المستطاع أن يهدئها ليستغل كل ذرة من هواء قد تزيده حياة في هذا الجو الغريبة ملامحه والمجهولة تفاصيله .

يستنشق عطرًا ليس بالغريب على ذاكرته، فقد اعتاد عليه مرارًا وسجله في طيات وجدانه، وقد يخطئ في الدنيا وما عليها لكنه لا يخطئ في عطرها أبدًا .

لم ينس مريم ولم يذكرها وكيف يذكرها وهي بالتأكيدلم تغادره ولو لوهلة ولم يلتئم جرحها في ذاكرته بعد، فكل تفصيلة وكل موجود في الحياة يذكره بها هي عشقه ووطنه الأبدي .

تمر رائحتها على خياشيمه لتشوقه وتضعه في حيرة من أمره، فهي بالتأكيد على بعد خطوات من موضعه وهو في قمة الحيرة وفى مشاعل الاشتياق .

هي دائمًا هكذا تحب أن تختبر حبه لها، وتعشق أن تعرف كم العشق الذي يكنُّه لها وأن كانت المعادلات الرياضية قد تعجز في هذا وقد فشل في أن يقنعها بذلك مرات ومرات، لكنها ما زالت تريده أن يحنو عليها بحبه وأن يستزيدها من هواه الأزلي .

يُسرع من خطواته سائرًا على درب عطرها، يتخيل مشهد اللقاء وأنه لن يستطيع أن يكبح جماحه عنها هو الآن كمدمن الهروين الذي ظل لسنوات بعيدًا عنه والآن قد استنشق بعض منه فهاج داخله له هو الآن في قمة الاشتياق لحبه القديم .

أصوات الترانيم تبدأ في الظهور في تلك الكنيسة الشاهقة الممتدة يسير بخطوات

مسرعة مضطربة، يخلع بدلته ويرميها جانبًا فقد أحس أنها تقلل من سرعته ولو قليلًا يطير بقدميه حتى لفت نظره فتاة على بعد خطوات منه .
يمعن النظر لا يرى سوى خيالها يشع حوله ضوء خافت مريح يقترب منها ببطئ وتتثاقل قدماه في المضي، لا يستوعب عقله ذلك المشهد هي بالتأكيد "مريم" بعد كل هذا العذاب وكل هذا الاشتياق .
يقترب منها وفجأة انطفئت كل الشموع حولها، ولم يتبق سوى شمعة تمسكها بيدها لتنير قلبه وترشده إلى طيات وجودها ومنارة حبها .
تهدأ أنفاسه رويدًا رويدًا وأخذ يتصبب عرقًا، هو الآن غريق في ثنايا عشقها غريق غير قادر على السباحة عاجز عن الوصول إلى شطه القديم حيث التقيا وتنفس حبهما أولى أنفاسه في الوجود .
وصل إليها ووقف خلفها كظل عابث قديم، يريدها أن تنظر إليه يريدها أن تأبه له ولو قليلًا وأن تتوقف عن تلك اللعبة الساذجة الحمقاء ينادي عليها بصوت هامس متردد:
- "مريم" .
يريدها أن تلتفت إليه ليشبع من تفاصيلها يريد أن يستنشق بعضًا من هيروينه المفضل .
وفجأة تهدأ الترانيم وتنطفئ شمعتها ويعم الظلام الدامس زوايا القاعة لا يُبصر شيئًا ولا يرى من خيالها شيئًا أهربت منه مرة أخرى؟
أم أنها تلاعبه كسابق عهدها؟
لم يجد الإجابة إلا بعد أن استيقظ من نومه العميق واستفاق حلمه الممتع والمريب .
وجد نفسه وقد كان في رؤية ممزوجة برهبة الكابوس، فحين يبدأ حلمك بكل جميل تتمناه وكل رائعة تبحث عنها ومن ثم ينتهي نهاية حتمية قاسية فما أبشعه من شعور!
يفتح جفونه من حلمه القاسي ويتمتم بصوت منخفض:
- "مريم ما زالت على قيد الحياة، لقد كنت أثق في حدسي، فحدسي بمريم لا يكذب أبدًا" .
هو الآن وحيدًا في "مستشفى الأمراض النفسية" فاقدًا لذاكرته ولا يعلم شيئًا عن

نفسه ولا عن هويته، ولا يتذكر سوى مريم حبيبته الأبدية، فقد ظل في غيبوبته تلك عام من الزمان ولم يستيقظ منها إلا الآن بعدما رأى مريم في منامه .
عام من الزمان وهو في أحلامه وربما قد ظل حلمه بمريم ملازمًا له وقد استغرق أيضًا عام وهو يحلم بها .
هو الآن تائه في عالم لا يدرك ملامحه، ولا يرى أي بصيص من الضوء المعتاد، شارد في عبق الليلات .
أهو ما زال في حلم أم أنه واقع مشتت بين جدران التخيل العقلي!
لا يجد أي إجابة ولا يرى سوى عتمة ممزوجة بإحساس الوحشة والفقدان .
يفتح جفنيه وكأنه يرى العالم للمرة الأولى في حياته، وكأنه الآن يولد من جديد، إحساس في قمة الغرابة، فلم يستطع الإحساس بذلك الشعور في يوم مولده، ولكنه الآن في قمة وعيه ويرى العالم للمرة الأولى أيضًا لم تكن الأولى في حياته، إنما الأولى في موته المؤقت .
أنفاس عميقة لم يعيقها إلا أنبوب الأكسجين الموضوعة على فمه، تلك الأنبوب التي أشعرته بالاختناق، فقد كان الإحساس بالانطلاق والتنفس الشديد قد تعدى ما تقدمه تلك الأنبوب من مساعدة في نظره لا قيمة لها .
وقد شاب الهدوء صوت صافرات منتظمة وقد شدته تلك الأصوات فأخذ ينظر عن يمينه فيرى تلك الأجهزة الطبية المزعجة المتصلة بجسده وكأنها تقيده كالأغلال .
فأخذ ينظر نظرة تعجبية خالصة لما هو الآن في ذلك المكان؟
أخذ يتحسس لحيته ليتيقن أنه في واقع متجسد أمامه وقد وجدها كثيفة فوضوية .
ينظر في ذلك الجهاز عن يمينه فيرى مسارًا متصل لنبضات قلبه لا يفهم معناه، فأمعن النظر لعله يرى ما وراء هذا المسار حتى وجد خط متصل تفصله موجات تتجه إلى الأعلى تارة وإلى الأسفل تارة أخرى يفصل بينها خط مستقيم يدل على التوقف اللحظي لنبضات القلب .
هو يدرك أن هذا الرسم ما هو إلا دليل على حياته وبقائه ما دامت تلك الموجات على حركتها تلك أما إذا استقام الخط فإشارة إلى توقف القلب الأبدي، ودليل على الموت الحتمي .
الآن وقد تأكد أنه على قيد الحياة .

يلمع في عينيه وميض ضوء يأتيه من الشرفة، وكأنه يعيد الأمل إلى طيات أنفاسه ويحفزه على البقاء .
يتساءل مع نفسه مرة أخرى لم هو الآن في ذلك المكان؟
ماذا حدث؟ أم أنه بالفعل قد مات ومندرج الآن تحت لحظات الوهم؟ أهو في حلم؟
لم تكن تلك التساؤلات تخيفه أو تثيره قدر ذلك السؤال الذي قد أصابه ببعض من الغرابة والخوف .
من أكون؟
لا يعلم شيئًا قط عن ذلك الجسد الذي يرتديه ولا يعلم ملامحه يتحسس وجهه لعله يتذكر شيئًا عن نفسه المجهول .
لا يشعر إلا بلحيته وقد تطاولت وشعره وقد امتدت خصلاته وحاجبيه وقد انفصل حاجبه الأيمن وكأنه قد جرح يومًا ما .
يُغمض عينيه ويفتحهما وكرر ذلك لعله يفوق من ذلك الحلم المخيف .
لا شيء يطمئنه وكل الأجوبة بالنفي عن ذلك الحلم الذي يبرر لنفسه ما هو فيه، كل شيء يبيح له الحياة ويقنعه بالواقع لا هرب ولا مفر وأن كان واقعًا على غير المعتاد .
يخلع الأنبوب عن فمه وكأنه تحرر وانطلق وأخذ يستعيد أنفاسه الطبيعية ومن ثم خلع تلك الأسلاك عن صدره وكأنه يفك قيود من الأوهام، وينزع تلك الإبرة المنغرسة في ذراعه لا يريد المزيد من ذلك السائل الممتد إليه لا يريد شيئًا سوى الاطمئنان .
هو الآن حرٌ طليق في ملكوته ربما شعر براحة مؤقتة لم تغنه شيئًا ولم تزل ما فيه من خوف وقلق .
يتجه إلى باب غرفته المظلمة يريد الهروب والانطلاق، لكنها لم تكن سهلة كخلع الأجهزة فقد أُغلق الباب بمفاتيح القهر فلم يستطع الخروج .
يشعر بانتفاضة داخلية فجأة يريد أن ينفجر يريد أن يُنسى وكأنه لم يكن من البدء، ترى في وجهه ملامح لو وزنت بقدر ذلك الخوف في العالم لغلبته، ولو قُورنت بمقدار القهر لاكتسحته، ذلك قهر الرجال واغتراب النفس ووحشة الحياة .
ينظر إلى المرآة الموجودة في سجنه وكأنها تعكس ما في تلك الغرفة من ظلمة وسواد، وهل ينعكس الظلام كالضوء؟
في المعتاد لا يحدث ذلك وربما كان الأمر مستحيلًا ولكن نظرتك للأمر هي من تحدد

ذلك الشيء فقد تزايد على نفسه العجز والهموم .
ينظر إلى المرآة يرى شخصًا لا يعرفه وكأنها لم تكن مرآة من الأساس يرى نفسه واقفًا أمام شخص يجهله يريد أن يسأله من أنت ومن أنا هل تعرفني؟
لكن عضلات لسانه وقد تراخت عن الحركة والكلام، بالتأكيد ازداد الأدرينالين وكأنه في وهم لا يمكن الخلاص منه، يرى عين الرجل أمامه تائهة منكسرة، لا يعلم أنها عيناه، وقد ملأتهما الدموع وقد شعر بها على خده، وعندها تيقن أنه من بداخل المرآة وتيقن أنه واقع فعلي لا يمكن إنكاره .
يرى كل شيء حوله منطفئ المعالم وكأنه تائه وسط مغارة لا يدرك ملامح ظواهرها كما لا يدرك ملامح طياتها ونوادرها .
يسير وكأنه في سباق مع الزمن، وقد انتصر الزمن فلم يقدر على تتابع قدميه، وأخذ يستند على حافة المضجع ليخرج إلى تلك الشرفة وليخرج إلى منبع الأمان المؤقت .
يفتح باب الشرفة وقد توارى مقبضها بالتراب ألتلك الدرجة كانت عزلته؟ يتساءل في نفسه .
وأخيرًا خرج إلى الهواء وإلى مفترق الحرية والانطلاق، ينظر إلى السماء يرى النجوم في الأعلى والقمر هلالي شكله، يبتسم بلطف وقد عانى الكثير في إخراج تلك البسمة الممزوجة بشيء من الذهول .
لم يغير مسار نظره عن السماء، فلا شيء غير السماء ستمده بالعون في موقفه هذا، يحسد النجوم على ما هي فيه مضيئة هادئة وبعيدة عن ذلك العالم، ربما استعطفه القمر فما أشبهه بحالته تلك، فهو معتم لا يشع ضوءًا كباقي النجوم، يشعر بالغرابة وسط تلك النجوم، ربما هو نادر في السماء ولا شيء على شاكلته يبتسم إلى القمر يخبره أنه معه ويشعر به .
وبينما هو في ذلك المشهد مندمجًا في تخيلاته ومستمتعًا بحواره مع نفسه، يقطع تفكيره صوت أنثوي ناعم لم يخيفه إنما شعر منه الأمان وقد أشارت بأصبعها إلى السماء .
- "أتعلم اسم ذلك النجم؟"
استغرب قليلًا ونظر عن يساره إذ بملاك بشري أمامه أو أنه ذلك القمر وقد تجسد على هيئة حسناء ليكملا حديثهما السابق .

رقيقة هي كضوء القمر الخافت ينساب من على رأسها خصلات سوداء داكنة، ووجها أبيض وكأنها بالفعل قمرٌ في سواد السماء، عيناها بنية عسلية لامعة حين تلتقي بخيوط من الضوء .

لم يجبها ربما استغرق كثيرًا في تأملها ولم ينشغل بسؤالها بقدر ما هو منشغل الآن في رؤية ملامح جمالها نظرت إليه متعجبة .

- "لماذا تتجاهلني؟ هل تعرف اسمه أم لا؟"

نظر إلى السماء حيث تشير تلك الفاتنة وظل صامتًا ونظر بعين استنكارية لنفسه فهو لا يعلم من يكون فهل سيعلم اسم ذلك النجم .

هي شعرت بأنه لا يعلم الإجابة وأحست منه بغرابة شديدة وقالت:

- "نجم الشمال، يُستدل به على الاتجاهات، فإن تُهت في يوم ما، فلا عليك إلا النظر إليه فسينقذك ويخبرك بالطريق، ليس الطرق المادية فقط بل كل طرق الحياة الممتلئة بالعقبات" .

ينظر إليها مستمتعًا بكلامها وكأنه يدرك أنه تائه وقد أيقن أن النجم هو من سيساعده فعليًا ليس القمر .

نظرت إليه مبتسمة .

- "ما اسمك؟"

نظر ورائه لعله يجد شخصًا آخر مقصود بحديثها ولم يجد شيئًا وقال:

- "هل تقصدينني بالحديث؟"

ضحكت بصوتٍ عالٍ:

- "نعم أنت" .

نظر إلى نجم الشمال وظل صامتًا .

- لا أعلم، لكنني متأكد أن الاسم لن يفرق شيئًا معي ولن يُبدي تلك الأهمية المبالغ بها .

- كيف لا يكون اسمك شيئًا مهمًا، هل يستطيع الإنسان أن يحيا بلا هوية؟

- أهمية الاسم تكمن في أن يعرفك الناس ويدركوك لكن وما فائدته وأنت لا تعلم شيئًا عن حقيقة نفسك، ولا تعلم شيئًا عن كينونتك وحياتك .

أتعرفين محمود درويش؟

- بالتأكيد أعرفه .
- درويش قد قال في قصيدة له:
"واسمي وأن أخطأت لفظ اسمي على التابوت لي" .
قاطعته مبتسمة وقد غمرها الشغف لتكمل تلك الأبيات:
- "أما أنا وقد امتلأت بكل أسباب الرحيل، فلست لي" .
ابتسم لها فهو يعشق هؤلاء الذين يبادلونه الحديث بالشعر؛ فهو يعشق الشعر ويرى أنه المناسب للغة الكلام، ويتمنى لو أن العالم أجمع قد تحدث شعرًا .
لم انس أبيات محمود درويش وهي أيضًا، ربما لم يستطع العقل أن ينسى تلك الكلمات التي تحفر على حوائط الذاكرة، فهو وأن فقد ذاكرته فقد يتسلل في عقله كلمات تظل باقية أبد الدهر، كلمات لو وزنت لأثقلت العالم وما عليه جمالًا .
- هل فهمتي ما أعني؟ الاسم في دلالته لشخصه أهميته محدودة بالنسبة لحياته وعمله وذكراه .
الاسم لا يعني للظالم شيئًا ولا يعني للمظلوم أيضًا، ربما فضلت أن يسمى الناس بصفاتهم فتتضح الحقائق وتنكشف الخبايا بلا كذب أو خداع .
- "معك حق، أنا أيضًا أملك نفس المشكلة" .
رد متعجبًا:
- لا تعرفين اسمكِ؟
ضحكت ضحكة هادئة:
- لا ليس لتلك الدرجة، اسمي سما لكن الأشياء التي أعلمها عن نفسي قليلة جدًا ربما تكون محدوة .
- إذن، أين نحن؟
ابتسمت وقالت بسخرية:
- نحن على كوكب الأرض، ففوقك السماء وأسفلك الأرض .
نظر إليها وقد شابته الطمأنينة:
- الحمد لله .
ربما بدا على وجهها ملامح الدهشة حقًا، وقد تعجبت من ذلك الشاب أمامها تريد معرفة حقيقته، هل هو يسخر منها أم أنه يتكلم بعفوية خالصة؟

وبينما هي تنظر إليه التفت إليها وقد تحسس وجهها بيده الباردة وأخذ يتحسس كل جزء من وجهها وكأنه يثبت لنفسه حقيقة وجودها وهي تشعر بما في داخله ربما أحست بذلك الشعور من قبل في أول أيامها في ذلك المكان .

فما العمر إلا لحظة عفوية يشوبها دقات اغتراب وحنين، ويفترق في أيامها لحظات فاصلة لا تنسى ولكن تبقى بتفاصيلها الموجعة .

وما الحياة إلا لحظة تمر في خلسة من الزمن، ولكن لا يدرك المرء ذلك إلا بعد أن يختلسه الزمن .

الآن وقد أمطرت السماء لترسل إليه رسالة القمر وكأنه يخبره بأنه ليس وحيدًا كما يعتقد وأن الأمطار تواسيه بين لحظات سقوطها .

يرتطم على الأرض فجأة وقد فقد وعيه لينتهي المشهد الفارق في حياته مع أمل بيوم معلومة ملامحه، وكأن القدر يهبه بعض من سكينة مؤقتة ولا يرى ما وراء تلك اللحظة من أيام لن تمر .

منذ عام . حينما كنت أتيقن ذاتي .يوم كسابقه لم يتغير شيء سوى طقوس السماء، فالشمس شتوية فاترة يغلب عليها طابع الدفء، الهواء طليق بارد بعض الشيء، طقس خيالي ساحر لم يسبق وأن أستحسه منذ بدء الشتاء،لم تتعد الساعة الخامسة فجرًا .

يجلس يوسف وحيدًا في آخر عربات القطار، بالتحديد يستلقي على عتبة الباب الأخير، أمامه القضبان المتحركة ومن خلفه القطار الساكن في وجهة نظره، يسير القطار بسرعة هادئة وكأنه لم يصح من نومه بعد، يطلق يوسف قدميه خارج القطار كي تطير وتحلق في مشهد كان يعشقه .

لم يرد بذلك الهروب من "الكمسري" كما يفعل البعض بل أراد شيئًا أجدر من ذلك، شيء لم يقدر على فعله إلا في الهدوء .

يوسف شاب وقد بلغ من العمر السابعة والعشرين، شاعر عصامي يندرج من طبقة عصامية كما يصف نفسه، يعيش وحيدًا فقد كان وحيد والديه قبل أن يختطفهما شبح الموت .

يرتدي قفازه الذي لا يفارقه في يده اليمنى ليس لأن البرد يستدعي ذلك إنما وراء ذلك أمر جلل أمر خفاؤه واجب كي لا يخسر ما قد تبقى له من ذكريات .

لا يفارقه قلمه ومفكرته فهما مهنتاه وأكل عيشه الذي يعمل بهما ولا يكتب الشعر دونهما .

بادئ الأمر كان الشعر هواية يحبها ويمارسها حين يهوى قلبه ويستدرجه لها أم الآن فالأمر حتمي، فهي مهنة وحياة .

في طريقه إلى الأسكندرية منشأه ومسقط رأسه، والتي قد غاب عنها فيما يزيد عن خمس سنوات، كي يحضر أكليل صديقه ماجد أو كما يراه أخ له وقد دعاه، وقد كان في ذهابه إلى الأسكندرية ذكريات قاسية وأوجاع تمنى ألا يتذكرها .

يسلي نفسه بكتابة الأبيات ممسكًا قلمه سارحًا في عالمه الشعري حتى قطع تفكيره صوت عجوز:

- "أين ستنزل يا ولدي؟"

استدار برأسه وقد تعجب من سؤاله فمعظم مقاعد العربة فارغة بالتأكيد هو لا يحجز مكانًا له:
- أتريد أية مساعدة يا حاج؟
رد عليه منزعجًا بصوت متقطع ضارب بعصاه الأرض:
- أين ستنزل؟
استغرب يوسف وتأمله قليلًا ثم رد عليه بهدوء:
- أسكندرية أن شاء الله .
ضحك العجوز ضحكة حيرته وأصابته بالدهشة:
- تظن أنني لا أعرفك؟ فأنت حمار إن ظننت ذلك،
أنا من الممكن أن أتوه عن الدنيا كلها ولا أتوه عنك .
استدار يوسف إلى مفكرته ليكمل أبياته لا يبالي لذلك الرجل وقد شعر وكأنه خرف أحمق قد دهسه الزمان .
لم يذهب العجوز حين وجده مستهزئًا به ربما لم يفهم ذلك وقد جلس بجانبه وظل ناظرًا إليه نظرة تكاد أن تقتله .
التفت له يوسف في دهشة وظلا صامتين قليلًا ووجهها متقابلان وكأنهما يلعبان لعبة من يرمش بجفنه أولًا هو من يخسر اللعبة بالتأكيد خسر يوسف وتراجع عن النظر إلى ذلك الوجه .
لم يكن وجهًا معتاد إليه، فقد كان دارسًا لعلم النفس ولغة الجسد والفلسفة فهو شاعر فلسفي متعمق لا يفلت منه وجهًا إلا قرأه .
رأى في وجه العجوز شيء من الوجع غير المفهوم، شعر وكأنه في قمة الأسى بل وقد تعدى القمة منذ سنين وسنين لم يتداركها .
يرى في كل شق في جبينه ألف عام من الحزن ويرى في كل تفصيلة مجعدة نداء إلى موت فعلي يطلبه .
ربما هي نظرة رجلٍ كره حياته وقد طلب الرحيل .
نظر إلى يوسف متوجعًا بصوت ضعيف منكسر:
- ستظل تطاردني إلى متى؟ هل أنت والدهر سواء عليَّ كلاكما لا يحل عن عاتقي .
أحس يوسف بحالته وقرر حديثه بلهجته لعله يجد علته ويخفف عما هو فيه .

فنظر له بابتسامة ملأها الحنان .
- ولماذا تدَّعي أني أطاردك فمن الممكن أني أحب أن أراك باستمرار وأريد أن أكون بجوارك دائمًا .
- كذاب، أنت تكرهني ولا تريد لي ولو مثقال ذرة من الراحة .
طلعت بك شوقي سلطك عليَّ كي تراقبني في كل مكان .
رأى يوسف أن الأمر قد ازداد تعقيدًا، أراد الانسحاب من ذلك النقاش الساذج حتى قاطعه العجوز:
- أتعلم أنني أعشق فريدة جدًا وندمت حين تركتها تسافر إلى أسطنبول .
وصاح فجأة وقد ازداد ضغط الدم في عروقه على جبينه:
- لكنكِ السبب يا فريدة أنت السبب لقد أخبرتك مرارًا أني أحبك وأي عقبة لا تستطيع أن تفرق بيننا، فلماذا اخترتِ الرحيل؟
ثم نظر إلى يوسف بعين منكسرة دامعة:
- إياك يا ولدي وأن تتهاون في حبك لشخص ما ولو لمرة واحدة، إياك وأن تفكر بعقلك في درب الحب، صدقنى ستخسر الحب إن فعلت ولن تكسب إلا الندم .
عانقه يوسف وكأنه يخفف عنه ألم ألف عام رغم أن هذا مستحيل فعليًا
ثم نظر إلى العجوز وسأله بهدوء:
- إلى أين مقصدك يا والدي؟
- أنا لست مسافرًا يا بني، أنا كل يوم أركب القطار وأبحث عن فريدة وأنتظرها في كل محطة، لقد ندمت أني تركتها ترحل، أريد أن أجدها وأخبرها ألا ترحل مجددًا .
لكن اليوم وقد قررت أن أنتحر من على القطار لكنك السبب فيما أنا فيه أنت السبب .
وقطع حديثه صوت صافرات القطار ليعلن عن موعد الوصول إلى الأسكندرية، لم يكن الوصول كما يتوقعه، فقد ذكره العجوز بكل شيء وأحرق من روحه إلى أقصى الحدود .
هو الآن يسير بجانب البحر ويسمع تلاطم الأمواج التي تصطدم بحجارة الشاطئ وكأنها تفيقه من نسيانه وتذكره بكل تفصيلة عاشها في تلك المدينة منذ ميلاده إلى يومه هذا .

يلعن الساعة التي وجد فيها العجوز والتي قلبت عليه موازين الذكريات .
فالإنسان يظل مغلقًا في أحداثه حتى تشتعل فتيلة التذكر لثانية واحدة حينها تظل محترقة إلى الوراء لتعيد ما قد كان من ذكريات بائسة تجاوز حدوثها سنين من الكتمان أو سنين من النسيان المصطنع .
ربما تلخص ذكرياته في كلمة واحدة .
تدعى "مريم" .
قمة الأسى حين تتعلق ذكرياتك بكلمة واحدة ليصبح تذكرها عودة لسلسة من الذكريات القديمة .
هل العجوز السبب فيما هو فيه أم أنه بالتأكيد يعلم أنه سيتذكرها حين يرى البحر .
مهما كانت الإجابة فقد تذكرها بالفعل .
ذهب ليشتري علبة سجائر لينفس قليلًا عن تلك الأشياء بداخله،
يخرج سيجارته ويشعلها وكأنه ينتقم فيها من ذاكرته .
لم يدخن منذ خمس سنوات فقد كان آخر يوم دخن فيه حين افترق عن مريم .
وبعدها كره السجائر لكرهها لها، فقد حثته مرارًا وتكرارًا أن يتوقف عنها، ولكن الآن لا طائل وراء التوقف عنها، فلا شيء غيرها سوف يسنده في موقفه الذي أحس الوحدة فيه .
يجلس على الصخرة التي اعتاد الجلوس عليها ربما الآن يجلس وحيدًا ولم يجاوره بحر الأحزان .
فقد كانت هي بحر الأحزان كما أجابته عندما سألها عن معنى اسمها "مريم" .
- ما معنى "مريم"؟
نظرت إليه بضحكة هادئة:
- تعني أنا .
ثم قالت:
- معناه بحر الأحزان والهموم لكنني لست مقتنعة بذلك، وليس معنى أنني أدعى مريم بأن يكون المراد بالاسم ينطبق على شخصي .
رد عليها متعجبًا:
- لكن بحر الأحزان من المستحيل أن يشعر بالحزن يا مريم من الممكن أن يكون

سببًا في حزن الآخرين فقط .
لكنه طوال لقائه بها لم يشعر إلا أنها بحر الجمال، وحينها علم أن الأسماء لا تمت في معناها بصلة لكنه الآن تيقن بحقيقته تلك .
أن الأسماء مهما تباينت في معانيها إلا أنها تتصل بصاحبها مهما كانت الظروف وأن هناك لحظة سيتيقن المرء حينها أن الاسم ما هو إلا صفة للذات ليس مجرد اسم للنداء الأحمق .
"بحر الاحزان" .
هو الآن يؤمن بنظريته كلما نظر إلى البحر يستمتع بالنظر إليه ويراه لم يختلف الكثير عن مريم بل هو بالتأكيد مريم .
يرى زهرة متدحرجة والهواء يلقي بها وكل ورقة من ورقاتها تبدأ في الفناء .
تذكر حينما كان يلتقي بمريم في ذلك المكان وطلبت منه يومًا زهرًا بنفسجيًا .
- يوسف أنا أمنيتي باقة من الورود البنفسجية .
ابتسم لها وقال:
- ورد! صدقيني أنت أجمل من كل الورود في الكون .
ضربته على كتفه بخفة:
- لا أمزح أنا أريد أزهار بنفسجية كثيرة أنا أعشق هذا اللون .
حينها لم يكن بمقدوره شراء تلك الورد التي تكلف الكثير ربما عوضها عنها بقصيدة سماها "زهرتى البنفسجية" .
وقد أخبرته أنها أجمل هدية حصلت عليها في حياتها لم يكن المال حينها عائق لحبهما لم يكن أي شيء عائق لهما بالأصح كان حبًا أبديًا خالصًا .

"بضع لحظات من الذكريات"

وصل يوسف إلى بيته القديم في الأسكندرية، موضع ذكرياته ومسقط رأسه وملاذ طفولته التي يشتاق إليها .
بيت في حارة من حارات الأسكندرية القديمة، نفس البيت حيث نشأ يرى كل طابق فيه وكأنه قد عاد إلى ذلك العهد من الزمان .
يرى نفسه طفلًا الآن لم يتعد العاشرة من عمره، وقد تغير القليل من الأشياء "فدكانة عم عبده" لم يعد موجودًا بل أصبح مكانه "محل موبايلات" .
يتذكر حين كان يأتي بالعسلية والمستكة من ذلك المكان، ويذكر مريم حينما كانا يتقاسمان العسلية ويأكلانها معًا .
وعم عبده ذلك الرجل الهرم يذكر حين كان يمازحه وهو صغير وحين كان يشتكيه إلى والده عندما يصدم الكرة بدكانته يتذكر كل تلك الأشياء الجميلة التي تثير مشاعره نحو القدم .
لم ينس شيء قط بل تذكر كل شيء عن ماضيه وتناسى كل شيء عن حاضره .
يصعد على تلك السلالم المتشققة ويستند على الحائط يرى بعضًا من الرسومات الطفولية القديمة ويرى رسمة فتاة ترتدي ثوب العرس بجوارها فتى وقد أمسكا بيديهما يتذكر أنه من رسمها حين كان صغيرًا .
يرى كل تلك الأشياء ويبتسم ربما الإحساس بالماضي من أقسى أنواع الوجع حين تحن بذاكرتك إلى الوراء وتتلمس بيديك تلك الأشياء وتقول في نفسك لو أنني أعود ولو لثانية واحدة إلى ذلك الزمان .
لذلك قد قرر أن يعيش كل يوم في حياته ويتمتع بكل تفصيلة من حاضره لأنها ستصبح ذكرى مشوقة في يوم من الأيام بل ستصبح ذكرى مؤلمة أيضًا .
تعدى الطابق الأول وأخذ يمرر نظره عليه ذلك البيت القديم حيث يقطنه الخالة دميانة، لا يعلم هل ما زالت على قيد الحياة أم أن تلك الذكرى أيضًا قد تبدلت بسابقة عصرها .
يذكر الخالة دميانة تلك العجوز المسيحية التي كانت عاشقة للكنيسة، يذكر كم

كانت والدته تتركه معها إذا انشغلت بأمر من الأمور، ويذكر كم كانت تحدثه عن ولدها الذي تركها وحيدًا وسافر .
يتمنى لو كانت على قيد الحياة يتمنى أن تبقى تلك الذكرى باقية ولو لثانية واحدة .
ينزل من درجات السلم إلى الأسفل يتجه إلى بابها ينظر إلى الصليب الحديدي عليه وقد أكله الصدأ، يشم تلك الرائحة المقدسة يتذكر كل ذرة هواء قد عاشها في ذلك المكان، يتذكر مريم يراها أمامه تجلس على درجة السلم تبتسم إليه تسأله لماذا قد تركتنى وحيدة؟ لماذا لم تبق؟ لماذا لم تكترث لما قد كان بيننا وكأن شيئًا لم يكن؟
ربما أحس بالاختناق، وتضايقت أنفاسه أحس بإحساس الذكريات القاتل .
وهل للذكريات إحساس؟
ذلك الإحساس كالسم القاتل حين تتذكر منه شريطة تجذب غيرها من الشرائط ولا تنتهي إلا وقد امتلأت بكل أسباب الاكتئاب .
يتذكر والدته التي ربته من صغره وقد مات والده قبل ميلاده، قد كان وحيدًا لم يكن لديه أخوة ولا ونس لم يكن لديه إلا جيرانه من أبناء ديانته حيث شاركهم الذكريات .
يتذكر حادثة أمه حين حاولت الانتحار من أعلى السطح، يتذكر تجمع الناس في ذلك اليوم يتذكر بكائه واحتضانه لمريم وهو في السادسة من عمره .
فقد تعبت أمه وعانت الكثير في حياتها وما كان يوسف إلا عائق عليها ولكنه عائق بطعم الدفء وبطعم الحنان .
يفكر قليلًا في تلك الأشياء وقد اتخذ القرار بأن يطرق الباب لعله يجد ما قد تبقى له من ذكريات .
يطرق الباب لم يجد مجيب له .
ما زال يطرق ويطرق لم ييأس، فالذكريات القديمة من الصعب رجوعها ولكن ما زال ممتلئًا بأمل العودة من جديد .
ظل هكذا بضع دقائق ولم يجد من يرد عليه، ولم يوشك أن صعد درجات السلم حتى وجد الباب وقد انفتح قليلًا قليلًا يسمع صوت المفاصل وقد تغالظ صوتها من قلة فتح بابها وندرة زائريها .
رأى امرأة عجوز شمطاء شعرها أبيض منسدل ناعم وأن قل بعض الشيء يرى تجاعيد

في وجهها عمرها آلاف الأعوام، ينظر في عينيها وقد أكلها البياض، تستند على عكاز خشبي من غصن شجرة قديمة .
بالفعل لم ينس تلك الملامح هي بالفعل الخالة دميانة صاحبة القرن من الزمان .
ظلت تنظر إليه وقد وهن جسدها وزال بصرها ظلت تنظر رغم عتمة ضوئها .
هو وقد علم أنها كفيفة البصر ولكنه يعلم أن مثل تلك النساء يمتلكن بصيرة حادة ليتعرفن على أشياء قد يصعب على البصير أن يراها ويعلم أنها ستعرفه من رائحته .
قالت إليه بصوت متهدج منكسر .
- من أنت؟
صمت قليلًا أحب الصمت في مثل ذلك الموقف وقد غلبه الحياء .
أبعد تلك السنوات أقف أمامها؟ ألا أستحي من عدم اكتراثي بها وسؤالي عنها؟
سعل بشكل مصطنع وقد تظاهرت أنها مصطنعة حقًا .
اقتربت منه وضعت يديها على وجهه وكأنها تقرأ كل تفصيلة من وجهه .
أخذت تتحسس وجهه بيديها الخشنة المتجعدة، ربما لم يشعر يوسف بهذا الحنان منذ أن ماتت والدته .
ظل صامتًا هو بالفعل قد عشق تلك اللحظة .
وفجأة أخذت تبكي بعد أن تركت وجهه ودخلت بيتها ولم تكترث له .
دخل وراءها لم يحب أبدًا أن يكون اللقاء بينهما كمثل هذا الموقف القاتل .
لم تدر وجهها له وقالت بصوت باكٍ:
- أين كنت يا بني طوال تلك الفترة؟ لقد ظننتك مت ولكن يا ليتك رحلت ولا أراك بعد كل تلك السنين .
رد عليها يوسف:
- أنا لست ابنك،
أنا يو . . . .
قاطعته وقد نظرت إليه:
- أنا لم أكن أمتلك ابن غيرك يا يوسف أنت ابني منذ أن ربيتك من صغرك ونشأت في بيتي ها هنا .
بلع ريقه وقد استحى لما هو فيه:

- صدقيني أنت آخر أمل لي في تلك الحياة لقد أصبحت شبه منته .
أقبلت إليه وقد أخذته بين أحضانها فقد كانت بمثابة الأم الروحية له وهو بمثابة ابنها الحقيقي بدلًا عن ابنها المستعار .
ربما كان الحضن مختلفًا عن باقي الأحضان فقد كان محاطًا بطمأنينة وقداسة تعم أرجاء المكان .
ذلك البيت الذي يشبه الأثر التاريخي لكنه مختلف عنه لأنه محجوب عن رؤية العامة وهو ما يزيد المكان قداسة .
صور المسيح معلقة على الحوائط لم تكن واضحة لقِدمها، قطة صغيرة ساكنة جالسة في زاوية من زوايا البيت تعطف عليها الخالة دميانة وترعاها مما أصابها من ذعر الشوارع المعهود .
سكون تام مختلط برائحة الذكريات المفضلة لدى يوسف لم يقطع السكون إلا صوتها حين سألته:
- وما الذي أتى بك إلى الأسكندرية بعد كل تلك السنين من الرحيل؟ فأنا لا أعلم عنك شيئًا منذ أن ماتت والدتك ورحلت عنا .
- لقد هربت إلى فرنسا عن طريق الهجرة غير الشرعية ومكثت بها عامين لقد شعرت حينها أن كل شيء قد انتهى في مصر، فقد كانت كل الأماكن تذكرني بوالدتي بعد وفاتها، لم أتحمل أن أمكث هنا وأن كنت أخبرتكِ لكنتِ أول الرافضين يا دميانة .
ولما عدت استقررت بالقاهرة ولقد أتيت اليوم هنا لأحضر أكليل ماجد
فلم يعش أحد كم الأسى الذي تعايشته يا دميانة .
- لا تخف يا بني، يسوع لن يتركك وحيدًا فهذا اختبار من الله صدقني كل شيء سيصبح على ما يرام .
- لقد تغير الشارع كثيرًا يا دميانة لم يتبق غيرك، حتى بيت ماجد قد تلون وأصبح كأنه حديث .
والشارع أصبح هادئًا ليس كسابق عهده أين تلك الأيام حينما كانت الضوضاء تعم أرجاءه طوال اليوم .
- أتعلم أن حظك سيء .
نظر إليها متعجبًا:

- لماذا؟
- مريم كانت هنا قبل أن تأتي أنت .
وما هي إلا أن وقع الاسم على سمعه كالبركان حين يخرج النيران حوله من كل جانب,
تغير لونه وعم الصمت القليل .
لم يكن سعيدًا بالتأكيد لم يكن بتلك الفرحة التي كانت تتوقعها دميانة .
- هل تسمعنى يا يوسف؟
- نعم اسمعكِ .
- أخبرك أن مريم كانت هنا قبل أن تأتي .
تعامل كأن شيئًا لم يكن وتحدث بشكل طبيعي مصطنع .
- لقد افتقدتها كثيرًا
- والدتها توفت منذ خمسة أشهر وقد كانت منكسرة حزينة طوال الفترة الماضية .
وجهت رأسها ناحيته مبتسمة .
- لكنها قد أصبحت أكثر جمالًا وأصبحت تشبه العذراء .
لم يكن يحتاج لأن يعرف منها مقدار جمالها هو بالفعل يعلمه بل يحفظه ويعشقه، يحفظ كل خلية مكللة في وجهها بالأزهار الأرجوانية والقداسة .
يتذكر مقدار الاحمرار في خديها حين تخجل ويتذكر بسمتها حين تفرح يتذكر كل شيء لم ينس إلا شيئًا واحدًا فقط، لم ينس إلا كونها نصفه الذي لا ينبغي تركه تحت أي ظرف وتحت أي مسميات .
- في ماذا تفكر يا يوسف؟
سأحضِّر لك كوبًا من الشاي .
ابتسم متعجبًا:
-لا أريد أن أتعبكِ .
ربما أراد أن يتسأل متعجبًا كيف لامرأة شمطاء كفيفة أن تصنع له الشاي ليشربه، لكمته على كتفه .
- ألا تريد أن تتعبني حقًا أم أنك تتساءل كيف لامرأة كفيفة أن تحضر كوبًا من الشاي، إني أرى أفضل منك أيها القزم .

تجول يوسف في بيتها ربما أراد المزيد من الذكريات، وجد إنجيل قديم وقد غطاه التراب وقد أزال التراب بيديه، سار جانب الحائط حتى نظر من الشباك إلى السماء ونظر إلى المنور الخلفي تذكر في طفولته حين كان يقف مثل ذلك الموقف ينظر إلى شباك مريم حيث يلعبان معًا .

وجد ذلك الصندوق القديم الممتلئ بالصور، لكنه لم يجده مغمورًا بالتراب كباقي الأشياء القديمة، هو يؤمن أن مريم قد شاهدته أكثر من مرة، ويؤمن أنها قد اشتاقت لتلك الذكريات أكثر منه، رأى صوره القديمة مع مريم وماجد وأصدقاء طفولته .

دائمًا ما تمتلئ الصور بأشياء أكثر من كونها مرسومة وتلك هي أهمية الصور أنها تعود بالفرد سنين إلى الوراء فما عليك إلا مشاهدة الصورة حتى تتذكر ذلك الموقف فإما تبتسم فرحًا أو تبتسم حزنًا وفي الحالتين يبقى الاشتياق .

أراد البقاء مع الخالة دميانة إلى أن يأتي موعد الإكليل، أراد أن ينغمس بين ثنايا الماضي ربما لم يكن ذلك مريحًا لكنه كان أمرًا واجبًا حتى يشبع ذاكرته من ذلك النقص من الحنان والدفء .

"رب صدفة خير من ألف وجع"

تجهزت لإكليل ماجد وقد تركت دميانة قبيل ذلك وقضيت ما تبقى لي من وقت على شاطئ البحر إلى أن حل المساء .

تعمدت أن أذهب متأخرًا قليلًا إلى الكنيسة لم أرغب في الحضور منذ البدء فدائمًا أعشق النهايات، أملُّ قليلًا من البدايات وأسرع لمعرفة النهاية فهي أمر حتمي الحدوث .

فكم من روايات قرأتها وعجلت بمعرفة نهايتها، أكره التشويق وأخاف من البداية حتى وأن كان أخرها مؤلم فتعجيل حدوثه خير من انتظار ذلك الألم .

وصلت متأخرًا قليلًا، الكنيسة هادئة لم يسمع إلا صوت الكهنة يقومون بطقوس الزفاف، يلقون بعض من نصوص الإنجيل ويباركون للعروسين .

دخلت الباب وكنت آخر الحاضرين ربما ازدحمت القاعة قليلًا أنظر يمينًا ويسارًا لعلي أجد من أعرفهم .

ابتسم لي ماجد من على منصته وقد غمزت له بطرف عيني، وجلست في أخر مقعد، ولم أبال بالحاضرين .

ربما أحس غرابة لم يشعرها من قبل، فهو يملك الحاسة السادسة، وهي القدرة على استشعار الأحداث قبل وقوعها، تارة تصيب وتارة تخطئ لكنها لم تخطئ معه قط .

تجذبه رائحة كثيرًا ما عشقها واعتادت أنفه على استنشاقها، ذلك العطر كان يثيره يجعله ينتفض، يغمض عينيه، يفكر قليلًا ويسرح في خياله .

يشعر بالخوف فهو لا يريد أن يلقاها وبأي وجه يلقاها بعد أن تركها دون علمها وكأنه يختطف روحها ويذهب .

شعور في قمة الفقدان لا يحسه إلا من عايشه ولا يدركه إلا ذوو القلوب المستثارة إلى الموت .

لكنه قرر الانتحار ، فنظر إلى جانبه لعل حاسته تكون مخطئة ولو لمرة واحدة، وجد امرأة جميلة لم يتعرف على ملامحها لكنها لم تكن مريم بالتأكيد ليست بحر الأحزان فهو يحفظها ولن يخطئها مهما حدث .

ربما شعر بالراحة الممزوجة بالاشتياق، فهو وقد اطمئن أنها ليست كما توقعت حاسته ولكنه اشتاق لها، تمنى رؤيتها فبعد أن أتى لتلك المدينة وكل شيء يذكره بها كل تفصيلة من التفاصيل وكل دقيقة من الأشياء .

كل نسمة هواء وكل ذرة تراب عالقة به تشعر بحرية الهوى واشتياق السكون .

كل شيء يذكره بها .

الآن وقد لبس العروسان إكليلهما وبارك لهما الجميع .

يرى يوسف أنه قد حان وقت التهنئة لصديق عمره الذي غاب عنه .

صعد المنصة وسلم على ماجد وعانقه بشدة لاحظ ماجد قفازه الأيمن .

- هل أصبت يدك؟

- لا إنه جرح بسيط جدًا .

وغير الموضوع في لحظتها وسلم على عروسته .

- مبروك يا عروسة .

ابتسمت له:

- الله يبارك فيك .

التفت إلى ماجد قائلًا:

- أين الأصدقاء يا ماجد؟ لقد افتقدتهم كثيرًا .

ضحك وقال:

- ألم تراهما؟

وأشار بأصبعه إلى مكان تواجدهما، ابتسم يوسف فرحًا وقد اشتاق لهما من بعد غيبته وكل شيء من ذكراه متعلق بهما .

ينزل فرحًا منطلقًا من على المنصة، يسرع إلى أصدقاء عمره ينطلق كما الابن الضال حين يهتدي إلى أهله .

وفجأة يرتطم بشخص عن غير قصد لينسكب الكأس على الأرض .

يدير وجهه إليها في خجل لا يعلم ماذا يقول في مثل هذه المواقف ترى على وجهه احمرار وخجل، ينظر إليها بعين مرتبكة .

وللحظة تزداد ضربات قلبه وتزداد أنفاسه يعرق قليلًا .

أهو في حلم أم أنها حاسته وقد أعادت تصحيح خطئها منذ قليل .

ينظر إلى عينيها، هو يعلمها وقد حفظ ملامحها .
يعلم أن تلك العينين لها وحدها .
شعرها الأسود المنسدل كالشلالات اللامعة في بحر الفقدان، وجهها أبيض كضوء الشمس حين يعطي احمرارًا على خدودها .
كل الأدلة تثبت أنها مريم لا شيء غيرها .
كل تفصيلة في وجهها لا يدرك معناها كل علامة غائبة في ضوء عينيها يشير إلى كونها مريم .
لا يستطيع فك شفراتها هي الوحيدة على تلك الأرض التي لم يطبق عليها دراسته لعلم النفس والحواس .
يرتبك حين يراها وكأن سدًا أحال عينيه عن قراءتها .
يلتزم الصمت حين يراها فالتأمل وحده هو العشق الأزلي وبصيص التذكر المنسي وكل لحظة من درجات الهوى .
- مريم .
تنظر له وإلى لحيته وشعره الطويل ونظارته الكبيرة، تبحث عن أشياء في وجهه كي تتمم تذكره .
ترى ذلك الخط المنفصل في حاجبه الأيمن، ربما تذكرته بالتأكيد تعرفه لكنها فضلت أن تنكره وكأنها لا تعرفه فنظرت بعين استنكارية إليه .
- هل تعرفني؟
صمت ولم يجد غير الصمت حلًا لذلك المساء المأساوي فماذا يقول؟!
- آسف .
تركها وترك معها جميع التساؤلات المنتظرة .
تركها عن دون قصد وكل قطعة في جسده تشده ناحيتها .
تركها وقد ندم على تركها للمرة الثانية، لكنه يعلم أنه خير حل لذلك الموقف .
ينظر ورائه ولم يجدها .
يثبت في مكانه ينظر في كل الاتجاهات ولم يجدها ليس حلمًا فواقعة الكأس المنسكب لا يزال أثرها على بنطاله .
ربما تخيلها ولكنه وأن أخطأ شكلها فلم يخطئ صوتها ولا عطرها، حتى وأن أخطأه

فلن تخطئ حاسته التي لم تخطئ قط في توقعها المنشود .
قد تمتلك ما قد يفوق حواسنا من شغف وعشق لا ساحل له، وقد يأتينا الندم على فقدان ما لا نتوقع ضياعه، فيصبح القلب مشتت بين العشق والندم في إحساس غريب ولو مزجا معًا لنتج شخص يسمى بالمقهور .
وأي نوع من القهر ذاك حين تودع من تحب ولا تملك البقاء .
أيضًا لا تملك العودة، لا تملك شيئًا قط إلا ذلك العشق الأبدى الذي يتحول آنذاك إلى أشد أنواع الشوق، الشوق القاتل حين ينغمس في طيات قلبك حتى يصبح موت القلب أمرًا حتمي ربما تباطأ لكنه بالفعل منته .

. . . .

"مستشفى الأمراض النفسية"
جالسٌ الآن على الكرسي، صامتٌ لا يقدر على الحركة، لا يتذكر شيئًا سوى ليلته السابقة، يتذكر بعض الكلمات التي ما زال يرددها بشفتيه .
"سما"، "نجم الشمال"، يتذكر أيضًا أنه قد فقد وعيه مساء الأمس،
الغريب أنه ما زال ناسيًا من يكون .
لا يتذكر حتى اسمه هو الآن في قمة الفقدان لا يتذكر سوى مريم ورؤيته إياها في حلمه أمس .
ذلك مهوى الحب ومفزع النسيان، حين تنسى نفسك وتنسى هويتك وشأنك وتنسى الكون والماضي وكل شيء، ولا تتذكر إلا حبك الأول مريم، هو لا يذكر شكلها ولا يذكر عنها شيئًا سوى اسمها وأنها حبه المفقود وربما أصبح حلمه بها في منامه أمرًا حتميًا .
يجلس في حديقة تملؤها الأزهار، يضرب شعاع الشمس في عينيه .
يخطف سمعه صوت ممرضتين على مسافة بجانبه تنظران إليه وتتحدثان .
لم يعرهما انتباهًا وكأنه لم ينجذب إلى حديثهما .
قالت إحداهما وهي تشير إليه:
- أنا مشفقة عليه جدًا، لم أكن أتخيل أن يفيق إنسان من غيبوبة بلغت العام من الزمان وقد أفاق منها ناسيًا كل شيء عن نفسه وعن سبب فقدانه للوعي .
نظرت إليها الأخرى بعين متحسرة على حاله .
- الله أعلم من الممكن أن يكون قد ارتكب جريمة أو أحدث مصيبة .

- حرام عليكِ يبدو أنه رجل محترم .
- أتعلمين أن الموت أهون له مما هو فيه الآن، ليت عنده مرض الزهايمر كان أرحم به، لكنه الآن فاقد لذاكرته فقط أي الأحداث القديمة من حياته أما المستقبل فسيتذكره بأحداثه .
- ويا ترى هل سيعيش من الأساس كي يتذكر .
تعمد أن يتقدم قليلًا بكرسيه بالتأكيد قد كره حديثهما وأن كان واقعًا .
اطمئن قليلًا بعد أن علم تفاصيل حالته الآن تأكد أنه لم يكن شخصية في حلم سخيف .
ينظر إلى الأزهار بعين طفولية بريئة، تقف فراشة على يده ينظر إليها، يتأملها وكأنها تشعر بما في داخله .
إذا بفراشة أخرى تجاور صديقتها وكأنهما عاشقان قد اجتمعا على يده .
فالإحساس بالحب شيء مختلف عن باقي الشعور فهو يصحب المرء في أي مكان، وبأي حال، فهو في حالته الآن عاشق والفراشات في حالتها عاشقة والسجين في سجنه قد يعشق فلا خلاص من الحب .
قد شوش ذلك الانسجام صوت مريض أخذ بالصراخ الذي لم ينقطع وقد اجتمعن عليه الممرضات، لم يهدئ روعه إلا حقنة قد غرسوها في كتفه .
ومن يهدئ من روعه هو؟
ينظر إلى السماء يبحث عن ذلك النجم ربما يلقاه ليلًا .
ينظر يمينًا ويسارًا يتأمل المكان ربما يستحثه شيئًا على الاقتراب، ربما يتذكر القليل عن ماضيه المنسي .
يرى من بعيد سما، ذلك الملاك الذي فتح عينيه عليه ليلة أمس، تروي الأزهار هناك وكانت تدندن ببعض الأغنيات .
يتحرك نحوها يجد صعوبة ووجع لكنه يريد أن يشكرها عن ليلة أمس فهي الوحيدة التي أنقذته من ذلك الكابوس .
ينظر إليها ببرود .
- سما، اسمكِ صحيح؟
نظرت إليه بغرابة:

- وأنت الشخص الذي لا يذكر اسمه .
ثم أشارت إلى زهرة:
- هل تعرف اسم تلك الزهرة؟
- لا أعلم من الممكن أنني كنت أعلم اسمها قديمًا ثم نسيته الآن .
ضحكت وقالت:
- لقد أسميتها حنين .
قال متعجبًا:
- أسميتيها؟!
- هل نسيت كلامك أن الأسماء مجرد وصف أحمق للأشياء، لذلك فتلك الوردة في نظري شيء وفى نظرك شيء آخر .
لكن الوردة تلك بالذات كان نموها غريب عن باقي الأزهار كان متأخرًا بادئ الأمر وكانت بعيدة عن باقي الأزهار .
- لذلك فقد أسميتها حنين .
يمكن في نظرك فقط اسمها حنين لأنك ظننتى أنها مشتاقة لباقي الأزهار،
لكنى أرى أنها قصدت أن تبقى بعيدة لربما سوف تذبل قريبًا وتتنتهي ولا تريد أن تشعرهم بذلك .
نظرت إليه بدهشة:
- تلك الوردة من عائلتك حتى تفسر حالتها بذلك الشيء الغريب المستحيل .
ابتسم وقال:
- معظم الأشياء التي نراها للوهلة الأولى نحكم عليها بالخطأ وحين نكتشف خطأنا يكون قد آن الأوان .
لذلك اعتني بها لأنني سأحزن إذا ذبلت .
- هل تسمح لي أن أسميك؟
- لو مثل الوردة فأنا أرفض .
ابتسمت وقالت:
- أنت يوسف .
صمت قليلًا لم يعرف لما اختارت ذلك الاسم .

- لا أريد أن أسمع تفسيرك عن سبب اختيارك للاسم لكنه قد أعجبني .
صمتا قليلًا وأخذا يتأملان الأزهار في مشهد حزين حتى التفت يوسف إليها مرة أخرى .
- لماذا أنت في هذا المكان؟
نظرت إليه متعجبة:
- أنت أول شخص يسألني ذلك السؤال منذ أن أتيت هنا فلا تتعب نفسك جميع الموجودين هنا لا يعلمون سبب مجيئهم أو بالأصح ناسين، جميل أنى أذكرك منذ ليلة البارحة .
-هل محتمل أن تنسيني؟
صمتت قليلًا:
- ليس باختياري .
- لكني لا أعلم أحد غيرك هنا .
- ومن الأفضل ألا تعلم أحد نهائيًا هنا .
ثم تركته بلا سابق إنذار وكأنها تريد أن تبتعد عنه لا مزيد من الاقتراب ولا المزيد من التعارف .
وكأنها متأكدة بأنه قد اختار الجواب الخاطئ بل القاتل في رأيها .

"هنا يسكن الألم"

نهار جديد .
قد سُلب منه بريقه المعتاد لكنه أُضيفت إليه بعض من الرتوش .
فالتفكير هو أولى الطرق بعد الفقدان والنسيان .
يتذكر حلمه الذي انتزع منه الكثير من القلق ووهبه جديدًا من الحياة ورائعة من الأمل .
غالبًا نحن لا نتذكر الأحلام نتذكر فقط جملة أو عبارة، وجهًا أو تفصيلة أو ركنًا معينًا، أما الحلم بأكمله فشيء محال تذكره كاملًا ربما لا تعيننا ذاكرتنا على تذكره أو ربما تحنو علينا ذاكرتنا بنسيانه حتى لا نتألم .
يوسف وأن فقد ذاكرته إلا أن حاضره يعطيه مثالًا جيدًا للتذكر، فهو يتذكر كل شيء يعيشه حتى حلمه السابق يعيه وكأنه كان واقعًا مداركًا له في عالمه الحقيقي .
يتذكر نفسه في ذلك الحلم يجلس على مقعد يتخلله الأزهار ويتنسم عطر باريس، يجلس قريبًا من برج إيفل وبجواره مريم .
لم ير وجهها في ذلك الحلم أيضًا قد تحدثت إليه وقد عاكسته الجلوس على المقعد، قالت له أنها ما زالت حية وأنها لم تمت وأخبرته أنها ما زالت تعشقه وتنتظره في باريس .
يتذكر كل ذلك وقد اطمئن قلبه، فقد يتذكر أنها ماتت، ولكن أحلامه تنفي كل شيء عن علمه بها، هو دائمًا ما يصدقها ولا يكذب لها خبرًا يؤمن أنها حية وأنها في باريس تنتظر اليوم الذي يذهب إليها .
يرتدي سماعته يستمع إلى فيروز ويتخيل كل تفصيلة من حلمه على كلمات فيروز، ويجعل من موسيقاها نغمة لخلفية الحلم الجميل .
يحرك الكرسي إلى الشرفة فلا مكان له غير الطبيعة الآن تحنو عليه ويحن لها
تدخل الممرضة بلا سابق إنذار .
- صباح الخير .

لم يرد عليها أما أنه تجاهلها أو أنه منغمس بالتأمل في الصباح الباكر أو أنه لا يريد أن يفقد تلك المتعة الصباحية بعد أن رأى مريم في منامه أو الاثنين معًا .

تقول له بابتسامة مصطنعة:

- ما حالك اليوم؟

انزعج قليلًا من ذلك السؤال الأحمق فماذا يقول لها التفت لها في هدوء:

- قهوة .

ردت في دهشة:

- نعم!

- سادة، قهوة سادة .

- لكن حضرتك ممنوع من القهوة ومن أي منبهات .

- اغربي عن وجهي إذن .

شعرت بالخجل وأسرعت إلى الباب،

لم ينظر إليها وسألها ذلك السؤال الذي يؤرقه بالفعل .

- ما اسمكِ؟

- ابتسام .

ضحك بسخرية:

- أغلقي الباب بعدكِ .

بالتأكيد حياته القهوة فقد أدمنها ولا يقدر على الحياة دونها، تجري في دمه، يتعب كثيرًا إذا لم يحتسيها صباحًا .

ينظر إلى الأسفل حيث الحدائق والمرضى تائهون بها .

يلفت انتباهه سما عند مجمع الورود هناك .

دقق النظر وقد استغرب لما تفعله، وقد وجدها تقطع تلك الزهرة الوحيدة التي لقبتها بـ"حنين" .

تعجب كثيرًا لا يدري لماذا فعلت هذا؟ بالتأكيد قد أثارته تلك الفاتنة الغامضة التي لا يعلم عنها شيء سوى اسمها لا شيء أكثر .

رأها وقد وضعت تلك الوردة في كتاب تحمله وأغلقت الكتاب وظلت شاردة قليلًا، كل ذلك وهو ينظر إليها يدقق النظر ينتظر ماذا سيحدث بعد ذلك أإلى هذا الحد

قد انجذب إليها أو إلى غموضها الذي لم تضع لها القوانين الطبيعية مبررًا لها؟
انطلقت وذهبت إلى حيث لا يراها في مجال رؤيته .
ربما أخذت معها بعض من الحماسة التي كانت تسلي وقته وتنسيه عما يقتله من مأساة النسيان التي لا يعرف سببها .
قرر النزول إلى الحديقة ربما يراها سجنًا فلا مكان في حدود مملكته إلا حدود تلك الحديقة، هي بالتأكيد سجنًا ولكنها أجمل من مئات الحريات الزائفة .
يخرج من حجرته ليرى عالمًا غريبًا، عالمٌ أشبه بالسكون وأي نوع من السكون .
ذلك السكون المصاحب للاكتئاب، يرى وجوهًا أمامه لا تكترث له كل في شأنه، وكل فرد في عالمه الخاص من الصعب اختراق عالم الآخرين غير أن تلك الفاتنة استطاعت وبكل بساطه أن تفك طلاسمه ربما هو من سمح لها في موقفه حين كان تائهًا ولكنها بالفعل حالة نادرة عن تلك الوجوه .
يسير بين أزهار الحديقة ولا شيء يجذبه سوى الأزهار لا شيء غيرها .
يبحث عنها في الأرجاء ولا يراها، وكأنها تظهر فقط في أول اليوم وفى أخره، وتعود إلى السماء بين هذين الوقتين .
وبينما هو شارد في خيالاته إذ نبهت حواسه برائحة القهوة .
نعم، إنها تلك الرائحة التي لم يستنشقها منذ سنة .
يرى الطبيب وقد وضع الفنجان وطلبته الممرضة في شأن ما .
الفنجان الآن وحيدًا وهو في أمس الحاجة لارتشاف بعض النفحات منه لعله يعود أدراجه من التذكر .
لكنه لم يستطع تحقيق ذلك فقد سبقه إليها ذلك العجوز واستغل وقت شروده وتفكيره حتى وصل إلى ذلك الحلم المنشود لكل من في ذلك المكان .
ذهب إليه وقد كانت هيئته مألوفة إلى يوسف، يشعر وكأنه رآه من قبل رغم أنه لم يجزم ولم يستطع أن يجزم ذلك فهو لا يعرف نفسه فهل سيعرف ذلك العجوز .
تأمله قليلًا واقترب منه حتى جلس بجواره استثاره ذلك الهرم إلى التفكير في شأنه،لم يكترث أنه قد نال تلك القهوة على قدر اكتراثه بهوية الرجل .
ينظر إلى ذلك العجوز يتأمله لم يصبر كثيرًا حتى وجه إليه ذلك السؤال .
- هل تعرفني؟

بدون سابق إنذار وأي مقدمات وبلا أي ترحيب أراد أن يتخلص من وساوسه .
نظر إليه ذلك العجوز مبتسمًا .
- هل تعرفنى أنت يا بني؟
لا يحب يوسف ذلك الأسلوب من الحوار، يكرهه وكأنما يشعر بالاستفزاز .
فيسأله نفس السؤال وينظر إليه بنفس النظرة وكأنه مرآة ينظر فيها على شخصه .
وفجأة ينظر له العجوز ويقول:
- أتحتسي بعض من القهوة؟
ربما قد علم ما في داخله أو بالفعل قد شعر أنه في أمس الحاجة إليها .
في المعتاد يرفض يوسف تلك العزومات ويشعر أنها مصطنعة رغم أنه أراد احتساء ولو القليل منها .
مد يده أخذًا الكوب .
- شكرًا،
ما الذي أتى بك إلى هنا يا والدي؟
نظر مبتسمًا بعين منكسرة .
- القصة طويلة جدًا يا بني أتعرف أنها كانت تكره القهوة .
نظر يوسف متعجبًا:
- من هي؟
- فريدة .
سمع يوسف الاسم ويشعر أنه سمعه من قبل، هو بالتأكيد ذلك العجوز ولكنه لم يستطع التعرف عليه، لم يستطع تذكره في حين أن عقله يخبره بأنه يعلمه من قبل .
- لقد أزهقت عمري في البحث عنها حتى وجدتها والآن أنتظرها هنا لقد أخبرتنى أنها آتية .
يعلم أن عقله الباطن هو من روى له تلك القصة وأوهمه بذلك اللقاء رغم أنه يشعر أن ذلك الموقف سوف يريحه ويخلصه مما هو فيه من أمل اللقاء وحدة الشوق .
- لن تأتي يا والدي .
أطلقها يوسف في وجهه كالقذيفة الملتهبة، لا يريد له المزيد من الانتظار الوهمي لا يريد له المزيد من الوجع،

نظر له وقد ظهرت على ملامحه كل حسرات اليأس .
- ماذا تقول لقد وعدتني فريدة أننا سنلتقى اليوم، أنا يوم أن تركتها وتنازلت عنها وهي تعلم أنه ليس بيدي أن أتركها ترحل أو أن أمنعها .
نظر إليه يوسف وقد أخبره بحقيقة لا يعلمها:
- يا والدي صدقني لن تأتي لقد حادثتني وأخبرتني أنها غير قادرة على المجيء وأن هناك عقبات تمنعها وأخبرتني أن أعتذر إليك .
- أنت كذاب، أبوها هو من أرسلك إليَّ، اذهب من أمامي الآن .
- حسنًا يا والدي انتظرها ولكن إن لم تأت فتذكر كلامي ولا تحزن .
وكأن كل شيء في وقت اللقاء قد أصبح هراء، ولم يتبق إلا حقيقة اللقاء، حتى وأن كانت وهمًا زائفًا فيحولها العقل إلى حقيقة ويا لها من حقيقة زائفة .
أراد يوسف أن يتركه وشأنه في خيالاته ربما يشعر بالراحة وهم بالقيام حتى نظر إليه العجوز:
- انتظر يا بني، حسنًا أنا أصدقك،
تحب أن أقرأ لك الفنجان .
ضحك يوسف وأعطى له الفنجان لكي يخفف عنه قليلًا .
ربما ظل بضع دقائق على تلك الحال، ينتظر رد العجوز حتى يأس ذلك الهرم وقال:
- لا أستطيع قراءة شيء من أنت يا بني؟
ما اسمك؟
ابتسم يوسف وقام من مكانه:
- أنا أدعى يوسف .
لم يقلها بثقة ولكنه تذكر قولها حين سمته يوسف عشق الاسم ورضي به، لعله ينشئ حياة جديدة حياة لا يعرف ملامحها .
ذهب يوسف وظل العجوز ينظر إليه ويمعن فيه لا يدري من ذلك الفتى الذي صعب عليه قراءة فنجانه ربما لم يحدث له مثل ذلك الموقف .
سار يوسف وقد علم أن العشق ما هو إلا معاهدة القلوب، علم حينها ما لا يعلمه عن العشق، إنه ذلك الشعور الممتد إلى آخر العمر ومنتهى الأزمان، حين يتعلقك قلبك بنصفك الآخر، حين تعشقه وترتبط معه بالذكريات، فهنيئًا للعاشقين وهنيئًا

لذلك العشق الأبدي .
لم يشغله الآن سوى سما تلك الملاك الذي ما لبث أن تعرف عليه في عالمه ذاك بعد غيبوبته، فهي بمثابة الأم له، هي أول من فتح عليها عينيه هي تلك الرسمه الأولى التي أبصرها واطمئن لها وأحس منها الأمان لكنه لا ينسى مريم حبه الوحيد الباقي فقد أقسم ألا يحب غيرها وألا يهوى قلبه في دنياه إلا هي .

«لماذا القدر!»

سار إلى تلك الغرفة المجاورة له، تلك الغرفة التي احتضنتها والتي من حظها أن تحتضن مثل تلك الفتاة .

يطرق الباب بهدوء لا يريد أن يراه أحد وقد اطمئن لعدم وجود ممرضات في ذلك الوقت .

لم يُفتح الباب، ظل صامتًا قليلًا لا يدري أهي بالداخل أم لا .

اتخذ ذلك القرار في لحظات قليلة قرار أشبه بالانتحار .

فتح الباب .

لم يكن باليسير عليه وإنما هو دائمًا ما يحب المخاطرة ويمل من الانتظار .

دخل وأغلق الباب خلفه .

قال بصوت منخفض مسموع:

- هل من أحد هنا؟

لم يستجب أحد واطمئن أنه لا أحد في المكان .

سرير وقد غطاه فراش أرجواني اللون، بجواره طاولة عليها أبجورة ذهبية وعليها صورتها وهي صغيرة ومعها فتى صغير كلاهما في سن الثالثة .

لم يعرف هل تكون سما أم أنهم أطفالها لم يتبين الأمر إليه .

يتجول في أرجاء الغرفة، وجد الكثير من الأزهار المزروعة في المكان القرنفل وعباد الشمس وغيرها من الورود ذات الرائحة الساحرة .

وجد لاب توب وهاتف محمول على السرير .

خرج إلى الشرفة وجد المكان حيث التقيا أول الأمر ابتسم حين رأه .

قد استنشق عطرها في أرجاء المكان ذلك العطر المميز الذي استثاره في أول لقاء وحفظه بعدها، ربما أحبه لكنه تحفظ في كون العطر القديم هو الوحيد القادر على إشعاله وهو عطر مريم .

نام على ذلك السرير بضع دقائق وقد نسي أين هو، حتى نبه نفسه قام وقد أوشك

على الرحيل حتى اختطفت أنظاره تلك الورقة المعلقة على السرير، والتي توضح حالة المرضى لم يكن يعلم أنها وضعت لذلك السبب .
انتزعها وقد أمعن نظره بها ربما تبين بعد الكلمات التي يعرفها بالإنجليزية، brain disease .
تلك الكلمتان اللتان قد عرف مرادهما في تلك الفقرة المكتوبة بالورقة لم يعلم غيرهما .
وظل ينزل بنظره لعله يجد كلمة يتبين معناها لكنه لم يجد حتى وصل إلى أخر كلمة في الورقة .
"death"
وما أن نطقها حتى شعر بالضعف والانكسار ذلك الشعور اللحظي القاتل
يبلع ريقه ويخلع نظارته ويغمض عينيه وكأنه في كابوس .
ينزع الشعر من ذقنه لعله يفوق من حلمه ولكنه شعر بالألم فتأكد أنه في كابوس حقيقي مؤلم .
تلك الكلمة التي كانت سببًا في انتهاء العمر وإنهاء اللحظات الحاضرة وبداية لسلسلة جديدة من الذكريات .
ربما كانت تلك الكلمة سببًا في كره الحياة وتمني الزوال .
أخذ التقرير معه لم يتمن أن تراه، هي بالتأكيد لن تفهم محتواه ولن يجاريها عقلها أن تقرأه أو تراه، لكنه أراد التخلص منه بشعور كئيب ظن أن التخلص منه سيخفف عنها ولكن لا خلاص من الألم .
لفت نظره كتابًا قديمًا وقد خرجت تلك الوردة من بين طياته، نعم إنها تلك الوردة حنين ولكن ما ذلك الكتاب .
يتساءل في نفسه لكنه سمع صوت أقدام وقد اقترب، فارتدى نظارته وخرج مسرعًا من تلك الشرفة ومعه ذلك التقرير اللعين .
دخلت غرفتها ومعها رائحتها التي ازدادت وتخللت خياشيمه ينظر إليه ويراقبها حيث لا تراه .
تمددت على ذلك السرير كملاك ينهمر من رأسها أنهار من ذلك الشعر الناعم، تنظر إلى سقف الحجرة تعشق التأمل والتفكير، تحب الهدوء .

تنظر عن يمينها وجدت تلك الصورة وقد قلبتها على وجهها، ربما لتلك الصورة شيء من الحسرة أو ذكرى مؤلمة أرادت أن تهنأ ولو قليلًا بعيدًا عن مجرى الوجع .

قامت منتفضة مذعورة فجأة .

قالت بصوتٍ عالٍ:

- من هنا؟

صمت يوسف وعلم أنه قد حان وقت الرحيل ذهب في هدوء من تلك الشرفة إلى غرفته .

جلس على سريره وأطفأ النور، يريد المزيد من الظلام .

يتساءل في نفسه لماذا اختار القدر ذلك الملاك دون سائر الخلق .

شعر بالاختناق الشديد كلما تذكر أن مرضها سينتهي بالموت الحتمي .

أيمكن لتلك البراءة المكتومة أن تقتل قبل الإفصاح عنها والتعبير عما في قلبها من حب قد يفضحها في أي وقت .

أم تظل متمسكة باستتار ذلك العشق لأنه كالبركان في ذلك التوقيت إذا انفجر قد يؤدي إلى حالة من اللا شعور المؤدية بدورها إلى الاختناق .

يتساءل لماذا اختاره القدر ليضعه في مثل ذلك الموقف وكأنه يقتله مرة أخرى أإلى هذا الحد يعانده القدر؟

هو يؤمن بالقدر لكنه يؤمن أيضًا بالعشق، ويؤمن بأن لمثل تلك المخلوقات الحق في أن يرى وجوههم دومًا دون غروب من تلك الأمسيات التي سوف تصبح أشبه بليلة شديدة السواد .

يجلس على سريره وهي تجلس على سريرها، هو في ظلام دامس وهي في نور وهمي كاذب، مبتسمة ملؤها الأمل والتفائل والحياة .

ويل لذلك الشعور القاتل وهنيئًا لذلك الموقف الذي أهداه إياها رغم ما يلقاه الآن من وجع الوداع .

"أسكندرية، منذ عام، ما قبل الغيبوبة"

صباح جديد لم يكن كما توقعه يوسف بعد ليلة زفاف صديقه ماجد .

يتذكر حين رآها بعد تلك المدة ليلة أمس، ويتذكر أيضًا حين تجاهلته وكأنها لا تعرفه، وهي بالتأكيد تعرفه فقد رآها تنظر إلى ملامحه حتى وأن تكاثفت لحيته

وهدأت نظارته بعضًا من ملامحه، لكن يتبقى تلك العلامة في حاجبه وأن أخطأ كل البشر في عدم تمييزه بها، فلن تخطئ مريم وهي من عايشت تلك اللحظة الجميلة في نظرهما .
يتذكر حينما كانا صغيرين ويستهويهما اللعب في ذلك الشارع، وجميع الأطفال في مثل سنهما كانوا يعشقون ركوب الدراجات وأي منا لم يعشقها .
ولكن والدة مريم كانت تخشى عليها كثيرًا، ربما رقتها وعفويتها الخالصة كانت تجعل أمها تجردها من أشياء كثيرة خوفًا عليها، ومن ضمنها ركوب الدراجات .
ذلك الأمر الذي أزعج مريم الصغيرة كانت تبكي ليوسف وهي جالسة معه على درجات السلم .
-لم تقبل أمي بأن ألعب بدراجتي يا يوسف .
لم يرد عليها كل ما في الأمر أنه أخذ يحنو عليها ببراءة الأطفال ويكفكف من دموعها,
- حسنًا لا تبكي أنا أملك فكرة جيدة سوف تعجبك .
أخذها أمامه كالمجنون على دراجته، وأخذ يطير بها في سماوات العشق الطفولي البريء، تبدلت عينها الباكية إلى ورود مزهرة، ظلت تضحك وهو يسير بها، يتذكر يوسف ذلك الإحساس الذي لم ينسه ويتذكر أيضًا خيبة الأمل في آخر ذلك المشهد، حينما تعرقلت الدراجة ووقعت بهما واضطر إلى السقوط وهو يحتضنها، وقد أخذ كل الضربات بدلًا عنها كي يحميها ومن ضمنها أن انشق حاجبه الأيمن وانهار الدم منه لذا فمن المستحيل أن تنسى مريم ذلك الشق في حاجبه أبدًا .
يتذكر كل ذلك وهو يبتسم ابتسامة ملؤها الاشتياق، يتذكر العقاب الذي أخذاه ليلتها وظلا كل منهما في بيته يتبادلان النظرات والضحكات من شبابيك المنور الخلفي التي كانت حلقة الوصل بينهما .
يقوم من سريره النحاسي القديم في ذلك البيت المحتضن لذكرياته، لم يستطع أن يتفقده ليلة البارحة لان مريم قد شغلته وملأت تفكيره كليًا .
قد أرسل سابقًا شغالة لتكنس التراب عن أرضية المكان فالآن قد ظهرت ملامح البيت وتفاصيله كما يتذكرها .
يخرج سيجارته ويشعلها، دقق النظر في جدران البيت وجد صور للمسيح والعذراء، رأى أنه لم يعد بحاجة إلى تلك الصور بعد، أنزلها ووضعها جانبًا يتذكر كم كان يصلي

لهم في صغره .
أطفأ سيجارته وخلع قفازه الأيمن فالآن لم يعد بحاجته في ذلك المكان، فهو وحيد بعيد عن ذكرياته القديمة، أو أنها كانت تحيطه لكنها بالتأكيد لا تراه . يخلع قفازه ليذهب معه الكثير من الذكريات فالصليب لم يعد موجودًا في يده .
ذهب وتوضأ فهو في أمس الحاجة إلى الصلاة وقد سمع صوت أذان الفجر .
كانت تلك صلاته الأولى في مأوى ذكرياته القديم، يصلي ويدعو الله أن يديم العشق ويبقيه ما دام حيًا .
لا يريد سواها وأن كان لا يستطع الوصول لها، لكن فكره يحتضنها فلا يرى سواها ولا يعشق غيرها، هي الحياة والملاذ وكل شيء، فقد أقسم أن يكون هذا العشق باقيًا، فلن يفرقه دين أو عقيدة وتعهد ألا يخلف ميثاق الحب وعهده القديم .
يتذكرها حينما كانا في إكليل صديقتها يومًا ما، كانت تنظر إليها بعين لامعة وكأنها تتخيلها مكانها .
يجلس جوارها يرى عينها ويبحث عن خباياه وعم يستره عقلها .
انتبهت له وعلمت أنه ينظر إليها، ابتسمت ونظرت في عينيه ولكنها لا تريد المزيد من الغرق في شلالات حبه .
كانت تعشق النظر في عينيه وهو أيضًا قد أدمنه، فقد تستطيع الإفصاح بالكثير والكثير مما يستتر في داخلك .
قالت له في تردد شعر به يوسف:
- أتعدني ألا تتركني يا يوسف، وأنك ستظل أبدًا الدهر لي .
تعجب كثيرًا مما قالت فأبعد نظره عنها وخفق قلبه فقد شعر أنه قد يكون القدر عائقًا لهما .
نظر إليها وحدثها بصوت متردد:
- ألديك شك في هذا؟ هل تتخيلين أن بعد كل ذلك الحب بأن يصبح قدري مع شخص غيركِ؟
لم أتوقع منك ذلك السؤال، ولكن إجابته تكمن حين كنا صغارًا وعشنا طفولتنا سويًا وكتبنا ذكرياتنا معًا، ومن المحتمل أن يصبح الجواب كل ذرة وقت عشناها سويًا وكل تفصيلة من حياتنا وقد تلونت بحبنا .

- يوسف .
أوقات كثيرة يصبح القدر بها أقوى من أي شخص ومن أي صدفة وأي حب، حينها لو أعملت عقلك ستصبح في صفه، أما إذا قدمت قلبك وهواك ستصبح ضده وفى كلا الحالين أنت المهزوم .
فكرت كثيراً حينها هل ستفضلني أم أنك ستتجه مع التيار .
غضب يوسف ربما اشتعل الغضب في عروقه،
احتضنها بشدة بين ذراعيه، أراد أن يهدأ وأراد أن يعطيها جوابه الأخير .
الحضن هو صورة من صور العهد على البقاء، وكأنه يعلنها صريحة لها أنها ستظل أنشودته الوحيدة وحبيبته الأبدية .
يتذكر الآن ذلك الموقف وقد تبدلت ملامحه كتبدل الليل بالنهار .
أخذ يتمتم مع نفسه:
- أنا لم أخلف وعدي يا مريم أنا لن أحب غيركِ حتى الممات .
ينظر في ساعته وإذ بالصباح قد حل، يفاجئه رنين هاتفه وإذا بصديقه محسن الصحفي، تعجب من اتصاله في مثل ذلك التوقيت ورد عليه ببرود:
- تفضل يا محسن .
-كيف حالك يا جو؟
- بصحة جيدة، أسرع وأخبرني ماذا تريد؟
كان يكره تلك الأسئلة الافتتاحية الدارجة تحت مفهوم الذوق العام كسؤال يخرج بعيدًا عن صميم القلب، سؤال بارد كالمعتاد .
- قصيدتك قد نُشرت أخيراً، عليك أن تراجعها وترى ما حذفته هيئة الرقابة .
ابتسم يوسف ابتسامة صفراء .
- من المؤكد أنه قد حذف منها الكثير، وكيف تأكل الرقابة على الصحف عيشها إذن؟ حقيقة الأمر أنا لا يشغل انتباهي ذلك، أعلم أنها جريدة صغيرة تحت السلم وعدد القراء بها من المؤكد أنه لا يتعداني أنا وأنت يا محسن، ولكن أكل العيش قد يبيح أي شيء حتى التنازل عن الأحلام .
قاطعه محسن فجأة:
- لقد ذكرتني لقد أتت إليك إحدى المعجبات ليلة أمس وسألت عنك .

تعجب يوسف وانتفض قلبه قليلًا .
- معجبة؟ ولي أنا؟ كيف هذا؟
- لقد أقبت إليك الحسناوات يا جو، ما شاء الله لقد كانت كالقمر .
لم يتركه يوسف يكمل مغازلته تلك، سئم منه ومن حديثه، لا يريد لأي شيء كان أن يقاطعه في مستودع ذكرياته هذا، فأغلق هاتفه في وجهه فلا مزيد من الخروج عن قوقعة الذكريات .
ينزل إلى الحارة يريد أن يتناول الإفطار من عربة فول عم إسماعيل .
العربة كما هي في مكانها المعتاد لم يتغير إلا ذلك الفتى أمامه .
- سلام عليكم أين العم إسماعيل؟
- وعليكم السلام، ادعو الله أن يشفيه لقد أرقده المرض الفراش .
- شفاه الله، أأنت ابنه؟
- نعم، أنا ولده محمد .
- حفظك الله له، وماذا تدرس يا محمد؟
- أنا في كلية إعلام في السنة الأولى .
- ربنا معك ويعينك، أفطرني الآن على ذوقك .
جلس يفطر وقد سمع الخلق حوله وكل يشكي من همومه، ما يفطر القلب ويوجعه، من يشتكي من مرضه ومن يشكو راتبه وفقر حاله، ومن يشتكي من مصاريف لأولاده وكأنه في حالته تلك قد أنعم الله عليه بفضله وبركاته، يستمع إليهم ويتحسر على حالهم .
انتهى وقد قام إلى كشك الجرايد ليشتري الجريدة، يريد أن يرى هل حذف شيئًا من شعره أم نشر بأكمله، اشترى الجريدة وذهب إلى بيته يقرأها .
يصعد السلم وتذكر خالته دميانة لم يلقها في الصباح، فقد كان شاردًا متألمًا ليلة أمس .
يدق الباب مبتسمًا وأخذ ينتظر لم يسمع صوتها ولم يجبه أحد .
ظل يطرق ويطرق ولم تستجب له، انتابه القلق والتساؤل، هل هي بالداخل أم أنها خرجت؟ يعلم أنه من الصعب عليها الخروج لحالتها تلك .
انتابه القلق الشديد وظل ينادي بصوت مرتفع:

- خالتي دميانة .
لم تجب أيضًا انتابه شيء من الشعور القاتل، لم يكن مطمئنًا قط شعر وأن شيئًا ما قد حدث .
ذلك الشعور المتصل بينك ومن تحب وكأنه خيط من الإلهام ينبئك بما يحدث له، هو الآن يشعر وكأن ذلك الخيط قد انقطع، ويسمع أنفاسه قد تسارعت وقد علت دقات قلبه .
وفجأة كسر الزجاج بيديه وفتح الباب .
ينتفض إلى الداخل وإذا بها ملقاة على الأرض .
رحلت وقد رحلت معها كل الذكريات .
تسقط الجريدة من يده وكأن كل شيء حوله قد ساده الظلام الدامس .
ينادي عليها ليتها تجيبه ولكن هيهات .
هدوء تام لم يشبه إلا صوت الهرة الصغيرة بجانبها، فقد عاشت بجوارها وماتت أيضًا بجانبها وكأنها ترثيها بتلك الأصوات .
لو كان يعلم أن مجيئه لن يكون إلى نهاية المطاف لكان أول الغائبين .
يتألم ويجلس على الأرض يتذكر والدته حين وافتها المنية ورحلت مثلها، هو الآن في تلك الصدمة كصدمة وداع أمه أو أشد قليلًا، فقد عايش تلك الخالة أكثر وظل بجوارها فترة أطول .
قد علم حينها أن لا شيء دائم وأن العشق أول الزائلين، لم يكن يعلم ما ذنب قلبه المتيم وقد شاب، ما ذنبه حين يعشق أناسًا قد وجد طيبة الحياة متجسدة في صورهم وفجأة يرحلون بلا سابق إنذار ويسرقون معهم ما قد تبقى في ثغرات القلب .
ولكن تبقى الحقيقة الوحيدة التي تعلمها في هذه الحياة أن الوداع هو أكبر دليل على الحب، فلولا الوداع ما ظهر الحب والحنين فبعد الوداع تتقلب ذكرياتك وتشعل معها فتيل الشوق، حينها تعلم أشياء لم تكن تعلمها عن الحب .

"الرقصة الأخيرة"

صباح جديد .

يستيقظ على صوت الممرضة، تفتح باب الشرفة:

- صباح الخير .

ينظر بعين غير مكتملة في انعكاس الضوء:

- صباح النور .

- كيف حالك اليوم؟

- الحمد لله .

- إذن تعال معي لعمل الفحوصات الخاصة بك .

لم يرد عليها وقد سلم نفسه لها فلا أمل في المزيد من الأسئلة التي لن تفيد .

- سأنتظرك بالخارج أغسل وجهك وأسرع .

قام من سريره يتذكر ما حدث البارحة يخرج إلى شرفته يسير حتى وصل إلى باب شرفتها، ينظر خلف الزجاج ولم يجدها لا شيء غير ذلك الكتاب وتلك الوردة كانتا على سريرها .

ذهب مع الممرضة إلى مركز الأشعة في إحدى الغرف .

تفاجأ بوجودها وقد وضعت الأجهزة حول رأسها .

ينظر إليها بعين منكسرة فكيف لهذا الملاك البريء أن ينتهي به المطاف بذلك الانكسار والضعف أو لا يحق له التحليق من جديد .

كل العيون حوله تملك نفس النظرة من التيه والاستغراب .

كل عين تملك القدرة على التحليق لكنها لا تستطيع .

انتهى من عمل الأشعة ينظر حوله لا يجدها، أخذ يبحث في الطرقات حتى نزل إلى الحديقة .

وجدها تجلس وحيدة تنظر بعين هادئة صافية كسماء الربيع لا تشعر بأن أجلها قريب، وأن تلك النظرة سوف تغيب إلى ما لا نهاية .

اقترب منها وكانت جالسة وسط الأزهار تنظر إلى الفراشات من حولها .
- كيف حالك يا سما؟
تنظر إليه مبتسمة بهدوء وتلقائية:
-بخير .
لم يطلب إذن الجلوس بجوارها بل اتخذ القرار بلا سابق إنذار، جلس بجوارها ولم يكن بينهما إلا بضع سنتيمترات .
ظلت تنظر إليه بتعجب شديد .
قاطع نظراتها وسألها دون أن ينظر في عينيها .
- من أنت؟
لم تجبه وظلت صامتة .
- أنا لا أعلم أحد غيرك هنا وأشعر أنني لو ظللت صامت هكذا فسوف أموت قريبًا .
نظرت إليه متعجبة:
-السكوت لا يقتل، السكوت عالم كغيره من العوالم، ربما يميزه الهدوء والسكينة وهذا ما يجعله الأفضل ويجعل من العزلة الأروع .
ابتسم وقال:
- بل تقصدين الانتحار .
هل تصدقين نفسكِ؟ معظم الأمراض النفسية تنبع من السكوت والكتمان .
انزعجت من حديثه:
- إلى ماذا تريد أن تصل؟
مسك وجهها بيده ووجه إليه لكي يتأكد من أنها تنظر إلى مقلتيه .
- أريد أن أعرفك أكثر وأنكشف على خفاياكِ .
- الآن صعب يا يوسف .
- لماذا تنادينى بيوسف؟
ضحكت وكأنها خرجت من ذلك التوتر القاتل:
- لا أعرف لكني قد قرأت كتابًا وكانت شخصية البطل تشبهك كثيرًا وكان يدعى يوسف .
ضحك لها .

- هناك احتمال كبير أن تنسيني لكني لا أريد ذلك .
شردت قليلًا:
- ليس الأمر بيدي ربما للقدر رأي آخر وربما لسلطة الدهر علينا أوضاع أخرى .
- لا بيدكِ يا سما، افتحي يدكِ .
أخرج ذلك القلم من جيبه وأخذ يكتب اسمه على يدها من الداخل .
- هكذا لن تنسيني أبدًا، هكذا سأصبح بجوارك دائمًا ليل نهار وفى الربيع والخريف سأسكن جواركِ وإذا نسيتينني يومًا فذلك الاسم على يديكِ سوف يذكركِ بي حينها .
أخذت هي الأخرى ذلك القلم من يده وأخذت تكتب اسمها داخل يده،
ابتسم وقال:
- هل أنت فارغة مساء اليوم؟
- لماذا؟
ضحك وقال:
-ستعلمين ليلًا،
سأنتظركِ هنا في الساعة العاشرة في الحديقة، لا تتأخري، سلام .
همَّ بالقيام من مكانه وهي تنظر إليه نظرة تعجبية خالصة، ربما ارتاحت له بالتأكيد حدث فلم تجد غيره في ذلك المكان .
حل المساء وظلت سما تبحث عن أجمل فساتينها لارتدائه، لم تكن غرفتها كباقي الغرف بل كانت تمتلك دولاب مليء بالفساتين، فوالدها من أكبر رجال الأعمال ولم يستطع إبقائها معه لمرضها العقلي والنسيان والذي قد يتسبب في كارثة يومًا ما لم يستطع التعامل معها .
تمشط شعرها المنساب اللامع كدقائق اللؤلؤ المنثورة في سماء ليل هادئة .
تنظر إلى المرآة لا تعلم ماذا تفعل ولا تفكر في ذلك، لا يشغلها شيء لا تريد إلا شيئًا من السعادة وأن كانت لا تعلم أنها سعادة مؤقتة قصيرة الأجل .
في لحظتها كان يوسف يرتدي ثوبه وقد وجد بعض من الأوراق في محفظته ينظر بها ولا يتذكر شيئًا فلا قيمة لوجودها بعد .
ينظر في ساعته وإذا بها العاشرة، فانطلق كالطيف العابر حين يسعى نحو عالم فيُضوي من الحب الجديد .

يشعر وكأن شيئًا قد جذبه إليها، وكأن قلبه مغناطيس يجذب كل ما هو مفعم بالجمال والحياة .
يرى أنه لا مزيد من التفكير في كونه من يكون فقد أراد هو الآخر حياة جديدة ذات ثوب جميل .
ينتظر في الحديقة ساكنًا هادئًا خلف إحدى الأشجار ينتظر قدومها ناظرًا إلى السماء فقد كانت صافية يعم الهدوء أرجائها .
ينظر إلى النجوم لم يستطع التعرف على ذلك النجم لكنه وجد القمر مكتملًا .
هل أخلفت موعدها أم أنها قد نسيت أو أن شيئًا ما قد حدث ومنعها عن القدوم؟
وبينما هو يطرح تلك التساؤلات لفت انتباهه وميض غرفة في المبنى أمامه . وكأنها الشمس تنبعث بين فجوات الظلام .
هي الغرفة الوحيدة المضيئة وجميع المبنى مظلم في مثل هذا التوقيت من المساء .
يشد سمعه حديث اثنين من العاملين بالحديقة لم يروه وقد أمعن النظر إليهما، وقد نظرا كليهما إلى الغرفة في وجه مشفق حزين، ونظر أحدهما إلى الآخر قائلًا:
- الغرفة ،٥ رحم الله الجميع .
ورد عليه صاحبه:
-لا دائم إلا وجه الله، هؤلاء الناس قد ارتاحوا من تلك العيشة الصعبة التي يُحبسون في جوانبها وكأن الموت أرحم إليهم كثيرًا جدًا .
ما لبث يوسف أن سمع ذلك الكلام وقد أسرع بالجري إلى تلك الغرفة .
يصطدم بالممرضات أثناء صعوده السلم مسرعًا لا يرى أمامه شيئًا ينظرون إليه بغرابة ويريدون الإمساك به فلا حق للمرضى بالخروج في مثل هذا التوقيت .
لم يكترث بشيء سوى تلك الفتاة التي قد سلبته كليتًا .
قد أخذت منه كل شيء ووضعت قلبها بداخله فهي رئتاه ودخانه في نفس الوقت .
هي رئتاه اللتان لا يستطيع العيش بدونهما في ذلك العالم المظلم المجهول، فهي الوحيدة التي تعرفه ويعرفها .
وهي دخان سيجارته التي يعشقها ولا يقدر على العيش بدونها فقد أدمنها وسار حبها العفوي النقي في شراينه وهو يعلم أن نهاية ذلك الحب هو الموت الحتمي فلا مفر .

يصعد وكل ذرة دم في عروقه قد ثارت حتى كادت أن تنفجر .
لا يرى شيئًا سواها فهي الأم والصديقة، لا شيء أكثر من صديقة إليه منذ أن عاد من تلك الغيبوبة القاتلة .
وجدها كانت كالطائر المنكسر بعد أن سقط في قفصه الحديدي القاتل
كانت ساقطة على الأرض والجميع ينظر في ذهول .
لم ينشغل بأمرها أحد فالجميع مشغولون في من فقدت حياتها وفى طريقها إلى عالمها الآخر .
أخذ ينظر إليها يتذكر أنه لم يتبق لها الكثير، يتخيل نفسه مكانها وهو جالس القرفصاء ويرثي نفسه على رحيلها بعد أن أهدته روح جديدة .
يشتعل في داخله كل نيران الحسرة التي لو نشبت في الكون كله لأحرقته ولم يتبق إلا رذاذ غبارها القاتل .
يتجه نحوها بخطوات مرتعشة على استحياء يمسك يدها فيحتضنها ويحتويها بجوار قلبه، وقد كانت في حال من الضياع النفسي ما بين النسيان والفقدان .
وكأنهما في سجن فلا تعلم أحد سواه ولا يعرف أحد غيرها في ذلك المكان وقد كان الإحساس بالغربة هو السائد في طياتهما .
أخذها على سطح المبنى حيث السماء .
هي نائمة على الأرض وعينيها في اتجاه النجوم .
هو قليل البعد عنها في مكانه بينما واقعيًا هي الأقرب إليه لأنها جزء من قلبه .
أخذ ينظر إلى الأسفل حيث عربة الإسعاف وهي تنعي ضيفها الجديد في مشهد مأساوي والجميع قد خرجوا من شرفاتهم ينظرون في تيه وعجب لذلك المشهد الصاعق، وكأن كل شخص يتخيل نفسه مكان تلك التي التقطها الموت .
سمعها وقد قالت في هدوء:
- لماذا يختار الموت أناسًا ويترك أناسًا أمنيتهم في الحياة هي الموت فقط؟
لم يكترث لقولها فليس على الذين كأمثالها من حرج، فلو تعلم أن الموت قد وضعها في قائمته وقريبًا سيختارها لما قالت هذا .
التفت إليها .
- أؤمن أن كل شيء يحدث لسبب ما وأن الموت له سبب والحب والفراق والبقاء

وحتى الانتحار له سبب،
ولكن تلك الأشياء لا تتوافق مع رغباتنا لذلك فإن وصفنا لها دائمًا يصبح جائرًا .
- في رأيك أن الموت أحيانًا لا يصبح ظلمًا؟
- بالتأكيد لا فكل شيء يجب أن يصل إلى درجة الفناء والانتهاء .
يلتفت إلى تلك الشرارة في السماء:
- حتى النجوم تنتهي ويظهر غيرها من النجوم، فمن المؤكد أن الموت رحمة أو أخره لقاء لا نعلمه لأشخاص نفتقدها .
قالت وبعض الدموع قد ملأت عينها:
- أتعلم أنه لا يوجد شخص هنا وقد تعرفت عليه إلا وقد تركني وحيدة وذهب إلى اللا عودة أنا أخشى بأن يصبح الدور القادم لك .
نظر إليها مبتسمًا:
- أتظنين أن هذ الشيء سيحزنني بالعكس هذا من أجمل رغباتي .
- إذن فنحن متفقان في نفس الرغبة .
- لا لسنا متفقين في نفس الرغبة، ولكنه من باب التصادف الذي يمارسه القدر دومًا .
- أحيانًا أفكر في نفسي وأحاول أن أتذكر الأشياء، لكن سرعان ما أيأس وينتهي تفكيري للحظة يأس تقتلني .
- التفكير في الماضي ليس في صالحنا، ما رأيك أن نفكر في المستقبل ولن نندم .
- سأجرب ذلك لكن لن أعدك فماذا إذا أصبحت تلك اللحظة مجرد ذكرى ماضية، فينبغى عليا حينها أن أعاود تذكرها حتى ولو أصبحت حقبة من الماضي .
يقطع حوارهما تلك الموسيقى الهادئة في الشرفة أسفلهما .
يتجه إليها مبتسمًا ويمد لها يديه حتى التقطتها بأصابعها وهمت بالقيام معه .
مسح آثار الدموع من وجهها وأخذ ينظر إلى عينيها اللامعتين وكأنه يرى النجوم في صورة أعظم من هيأتها الحقيقية .
- هل ترقصين معي؟
أخذا يرقصان بخطوات خائبة وهي تنظر في خجل .
- تقريبًا لقد نسيت الرقص .
- الرقص لا يُنسى هو من نسانا وسنذكره بنا الآن .

ظلا طوال الليل في وصلة من الرقص تحت أضواء النجوم وكأنهما يخلدان بعض من لحظات الفرح الفقيرة في حياتهما، وقد شابهما نوع من الأمل الجديد، جاءهما في صورة رقصة ربما تكون الأخيرة .

"ستبقين حلمًا لا يغادرني ويبقى ذكره أملٌ بعيد"

عاد إلى القاهرة خائبًا الرجاء وكأنه كان في زيارة قصيرة إلى مأوى ذكرياته، ظن أنها سوف تريحه من ذلك الاكتئاب الذي يحاوطه رغم أنها زادته اشتعالًا وإحساسًا بالألم يستيقظ في غرفته الصغيرة يسحب الصورة من أسفل وسادته تلك الصورة التي أخذها معه من بيته القديم كذكرى له بل كمذكر للألم والضيق فقط، فكلما ينظر إلى مريم تلك الصغيرة التي بالصورة وهو يقف بجانبها يتذكر تلك الأيام الخوالي السابقة قبل أن يدخل إلى الإسلام ويعلن الرحيل عن عالمه القديم .

كانت رقيقة بتلك العين البنية المميزة التي وهبها الله لها كنعمة لا مثيل لها، ضفائرها السوداء ووجها يشع ضوءًا كضي القمر في أول أيام الشهر .

يتذكر حين كانوا أطفالًا في الصغر، يتذكر ذهابهما سويًا وحين كانا يذهبا إلى المدرسة يتذكر يدها الصغيرة حين يظل ممسكًا بها طوال الوقت .

يتذكر الآن تلك البراءة والحياة كما أرادها حياة نقية ممتعة ولكن هيهات .

كان منزله قديم بعض الشيء في مصر القديمة قريبًا من سيدنا الحسين، فهو عاشق لتلك الأجواء ويفضل هؤلاء الناس الشعبيين الذين لا يشغلهم شيء فقد نالوا السعادة التي حرم منها الكثير من ذوي الأموال .

كان منزله متواضع ليس به تلك الأدوات الباهظة الموجودة في الكثير من البيوت فقد كان بسيطًا لأقصى الحدود .

غرفتان إحداهما بها سرير وطاولة، والأخرى بها الأنتريه ولكنه مغطى وممتلئ بالتراب وكأنه لا يجلس عليه كثيرًا لقلة زائريه .

الصالة وهي أشبه بكهف قديم به صالون قد تآكل خشبه والجدران فضية اللون .

بالتأكيد هو بيت شاعر وقد تشابه لشخصيته الفوضوية المهملة .

يدق الباب فجأة ويتساءل في داخله من الموجود على الباب .

ينطلق إلى الباب وإذا برجل البريد يعطيه جوابًا مجهول الهوية .

- ألا تعلم من أرسله؟

-لا والله يا باشا،
ممكن توقع هنا .
يتعجب من ذلك الجواب من يكون صاحبه ولما لم يعلن عن هويته، أصيب بالحيرة والدهشة الممزوجة ببصيص من الأمل المجهول .
تحمس كثيرًا وتوتر أيضًا، يتصل بصديقه محسن:
- الو .
- نعم يا عم يوسف .
- صف لي المعجبة التي أتت إليَّ في الجريدة .
ضحك وقال:
- هل نويت أم ماذا؟
- أرجوك أنا لا أمزح الآن أجبني وصف لي هيئتها .
- لقد أخبرتك أنها مثل القمر،
شعر أسود ووجهها كالبدر ليلة التمام وعينها عسلية اللون هادئة .
أخذ يفكر بها فهي تملك نفس المواصفات رغم أنها ليست الوحيدة بذلك المظهر .
-صحيح لقد نسيت أن أخبرك أنها مسيحية .
وما أن سمع يوسف تلك الكلمة حتى أغلق الهاتف وأغمض عينيه،
بالتأكيد هي مريم .
جلس على الكرسي في خشوع تام، هو تائه الآن وسط الطريق يتساءل ماذا يصنع؟ حين يزورك الحب القديم ويظهر كالقمر في ليلة جديدة هل تستقبله أم تتوارى خلف ذلك الشباك .
هو يخاف أن يتركه القمر إذا جاوره، ولكنه قد اشتاق لضيه بالتأكيد قد اشتاق إليها وكأن كل ليلة دونها كانت تمر عليه كيوم مأساوي المعالم .
يحبها بل قد جن بها هل سيكون الدين عائقًا أم أن الحب ما زال حيًا بينهما .
يفتح ذلك الجواب وقد علم هوية المرسل، وقد وجد به:
"سأنتظرك اليوم في الثامنة مساءً في ذلك المطعم المذكور عنوانه عندك" .
يخرج سيجارة من جيبه ويشعلها فلا جدوى دونها ولا سبيل غير استنشاق رائحتها .
يعلم الآن أن كل شيء لم يعد ولن يكون مثلما كان في سابق عهده .

هو الآن مسلم معتنقًا لعقيدة الإسلام وهي لا زالت على دين النصارى، فقد تباعدت أواصرهما فعليًا، لكن قد التقيا في مفترق المسيح حيث المحبة والشوق .
لم يشعر بالجوع فلم يتناول فطوره، فقط ذهب وأشعل الموقد ليحتسي القليل من القهوة .
يريد أن ينتبه لكل دقيقة في حياته القديمة، يريد أن يسجل كل لحظة ويكتبها في ذاكرته .
قد شعر بالجوع لكنه لم يكن جوعًا عاديًا بل جوعًا للذكريات والماضي، وهو أشد أنواع الجوع قسوة، فلن تصبر نفسك بقطعة خبز أو القليل من الماء فلا مُشبِع له سوى تلك الذكرى التي تملأ القلب وتفيض من حوله .
لا يعلم كيف سينتظر إلى أن يحل المساء وكأن الوقت يتباطأ عن قصد .

. . . .

حل المساء .
الساعة السابعة والنصف .
يرتدي يوسف بدلته رصاصية اللون صوفية الهيئة أسفلها بلوفر أسود وبنطلون أسود,
يرتدي نظارته الكبيرة المميزة، يمشط شعره الطويل لم يكن ناعمًا وأيضًا لم يكن ذاك الشعر الخشن بل هو بين هذا وذاك .
يضع العطر الخاص به والذي لا يستخدمه إلا في الحفلات الشعرية والمناسبات فقط وذلك لعدم اهتمامه لا شيء أكثر . . .
يرتدي قفازه في يده اليمنى وهو أهم شيء يرتديه فهو يخفي به الصليب المنزوع، فلا يريد أن يراه صديقٌ قديم فيعلم ذلك ويتغير طبعه معه لا يريد المزيد من فقدان الذكريات خصوصًا مع مريم .
يصل إلى ذلك المطعم في العنوان وقد كان منظره ينم على كونه لذوي الأموال، فقد كان باهظًا واسعًا وطاولاته مطرزة بألوان الذهب والفضة والإضاءة به كأنك في وسط السماء .
يدخله وقد استقبله الجرسون .
- أستاذ يوسف؟

- نعم .
-تفضل يا فندم .
ابتسم وكأنها المرة الأولى التي يطلق عليه لفظ كذلك .
لم يعرف ماذا يقول فهو غير متأكد أن مريم هي من دعته لكن قلبه يخبره أنها هي، بالتأكيد هي، من تكون غيرها .
- أنا مدعو على العشاء، لكن لا أعلم من دعاني .
صمت ولم يكمل .
- تفضل يا فندم في الطاولة عشرة .
فقد كان كل شيء مرتب .
يدخل مستمعًا إلى عزف البيانو وكانت سيمفونية بيتهوفن ذلك السحر الخالد الذي أخذه إلى عالم ما قبل الفراق .
يتذكر حبها للموسيقى، يتذكر عزفها في إحدى الحفلات قديمًا وكان في أول الصفوف .
كانت تنظر إليه وينظر لها يبتسم ويشعرها بالاطمئنان .
كان بين عيونهما لغة لم يفهمها أحد سواهما، لغة قد كتبا قواعدها قلباهما وخلداها في إحساسهما أبد الدهر .
تلك اللغة التي تظل باقية أبد الدهر حتى ولو تلاشت شعوبًا وجاءت الأخرى، فهي أكثر بقاءً من اللاتينية وأكثر رومانسية من الفرنسية وأصعب فهما من الصينية، لغة القلوب والعيون .
ينظر ويتأمل كل دقيقة وتفصيلة متناغمة مع نغمات البيانو يدقق النظر في ملامحها وقد تاه بهما يرى ختم الحسن في وجهها وقد طبع الحسن في أنحاء وجهها يعشق تلك العيون البنية فقد كانت وطنه .
يذكر كل تلك الأشياء يشعر بالضيق يزداد شوقًا لرؤيتها .
يتذكر حين انتهى العرض وكان أول الواقفين لتحيتها وكانت هي أول الناظرين إليه .
الجميع يصفق لها إلا هو وقد كان مشغولًا في الحديث معها بلغتهما الخاصة .
يذكر حين حملها على ظهره بعد انتهاء العرض وأخذ يجري بها رغمًا عن نظرات المارة ورغمًا عن عيون السماء .
أخذها على كورنيش الأسكندرية في نزهة ليحتفلا وقد كانت ترتدي فستانها الأحمر

الذي ما زال يذكر كل تطريزة به .
- لقد كنتِ مثل الملاك حين كنتِ تعزفين أتعلمين أنك جميلة جدًا .
لكمته بخفة على صدره:
- حين أعزف فقط؟!
رد مبتسمًا:
- نعم .
خجلت قليلًا:
- أنت بارد جدًا سوف أذهب .
التقطها من فستانها واحتضنها .
لم يكن هناك سواهما في ذلك الفضاء وقد بدأ المطر يهطل وبدآ بالجري، يمسك يدها ويتسابقا مع الزمن .
- أحبك يا يوسف .
لم تكن كعادتها مثل تلك الفتيات اللاتي تثرثن وتتفوهن بتلك الكلمة كثيرًا، فقد كانت تقولها بين الحين والآخر .
وقد كان لقولها إحساس غير الإحساس، فقد كانت تقولها بصدق وكان يشعر بها في كل مرة وكأنه أميرًا في حرم عشقها .
- حفظكِ الله لقلبي .
- ولما قلبك؟
- لأنني من الممكن أن أتغير ومن المؤكد أن أموت يومًا، حينها سأصبح ذكرى فقط لذا فإني أريدك أن تبقي في قلبي لأن الحب لا يموت يا مريم .
صمتت قليلًا وقد كتب على وجهها آلاف الأعوام من الصمت الممزوج بالحب .
يصل إلى تلك الطاولة ويجلس وقد توقف بحر ذكرياته للحظات رغم أن مريم وهي بحر الأحزان لم تتوقف ذكراها أبدًا .
يخلع نظارته يظن أنه سوف يستتر قليلًا خلف ضعف بصره رغم علمه بأن الرؤية ستتحسن مائة درجة حين يراها .
ينتظر وينظر إلى الجالسين أمامه كل في عالمه وهو في عالمه الخاص .
ينظر إلى ساعته يمسح زجاجها حتى لا يخطئ في قراءتها، يتأكد أنها قد تعدت الثامنة,

انتابه القلق الذي لم يقطعه إلا حين التفت إلى تلك الورقة أمامه .
ورقة مستندة على الفاظة وقد تساقطت إحدى أوراق الأزهار عليها .
يسحبها وقد انتفض من مكانه وهم بالقيام .
يفتحها يقرأ أول سطورها .
"من مريم إلى ذلك الغائب الذي قد خذل قلبي يومًا" .
لم يستطع أن يكمل قراءتها مسح عينيه وقد امتلأت بالقليل من الدموع التي حاول أن يكتمها، يعلم ما وراء ذلك الجواب ويعلم ما سوف يقرأه .
يقول في صوت غير مسموع .
- ليس ذنبي يا مريم لقد كنتِ جزء من الفراق، لم يكن مجرد دين أو عقيدة فقط لقد ساهمتي أيضًا في الفراق .
يشعر أنه لم يقدر له أن يراها سوى تلك المرة اليتيمة في فرح ماجد حين رآها صدفة وتعمدت أن تتجاهله .
يعلم أنه يستحق كل ذلك، يعلم أنه مذنب ويعلم أيضًا أن الأمل ما زال ينبض، وأن كانت نبضات خافته ولكنه يؤمن أنه سيحياه مرة ثانية .
عاد في المترو وقد تعدت العاشرة بعدما ظل ساعتين على كورنيش النيل، ينعي همه ويكمل قراءة ذلك الجواب الذي استخلص آخر أنفاسه .
ينظر من الشباك وكان تهطل الأمطار لم تكن كتلك الأمطار حين كانا سويًا .
كانت شديدة مؤلمة موجعة، كانت ترثي تلك الذكريات أو تبكي على الرحيل .
رفع رأسه إلى السماء يدقق النظر لعله يرى بالفعل قد رآها وابتسم .
لم ينسها ومن هنا يكمن الموت، يذكرها ويعيدها عقله في لحظات غير مبهجة .
دائمًا ما يراها في أوقات المساء والمطر، ولكن رؤيتها الآن بعد انقطاع الشوق غاية في الضياع .
يخلع قفازه ويرميه خارج الشباك، فلا جدوى من الكتمان فقد علمت أنه قد تخالف في دينها واعتنق الإسلام لكنها مؤمنة بحبه وأوصته أن ينساها .

. . . .

"مستشفى الأمراض النفسية"
يستيقظ في ذلك السجن المجبر على الإقامة فيه، يوم كسابقه ربما اختلفت القليل

من الرتوش .
فقليل من الأحداث قد غيرت حالته بغرابة .
يتذكر الليلة الماضية حين رقص مع سما، وقد كانت من أشد الأوقات حبًا له في ذلك المكان .
يستيقظ على انعكاس شعاع الشمس في عينيه .
يلفت نظره محفظته الموجودة على التابلوه بجانبه يأخذها ويفرغ كل محتوياتها .
وإذا به يجد تلك الورقة القديمة مخفية في جيبها الخلفي .
ابتسم وانتابه الأمل .
لعله يجد حاجته في تلك الورقة وتستطيع أن تعرفه بنفسه وتعطيه ما عجزت بطاقته الشخصية أن تعطيه له بمفاهيم عن كونه وشخصه المجهول .
يفتح تلك الورقة القديمة ويقرأ في همس .
"من مريم إلى ذلك الغائب الذي قد خذل قلبي يومًا، من مريم إلى يوسف .
أعلم أنه لربما قد نسيتني وأعلم أيضًا أنه من الممكن أن لفظ "مريم" قد أصبح ذكرى لك، إما ذكرى طيبة وإما مؤلمة .
ولكني أتيقن أنك ستتذكرني الآن .
ربما كان الدين عائقًا لك ربما كان مانعًا لك في مسلسل عشقنا، لكنك لم تفهم معنى الحب، ومنذ متى كان الدين يفرق بين قلبين قد جمعهما الحب .
أم أن تلك العادات الظالمة هي التي خوفتك .
أعترف أيضًا أنني أمتلكت جزءًا من قصة رحيلنا، ولكني أيضًا قد امتلكت أسبابي التي لو علمتها لسامحتني .
ولكن بعدها ربما يتوقف ذلك النبض في جسدي .
قرأت أشعارك في تلك الجريدة وتوصلت إليك لا لكي نعود كما كنا، ولكن لكي أبقي تلك الذكريات .
فلا شيء غير الذكريات باق .
لم أطلب منك نسياني ولكني لا أرغب إلا بطلب وحيد، أذكرني ما دمت حيًا يا يوسف, احكي عني من ذكرياتنا، اجعلها أنشودة، أريدك أن تختم تلك الرواية التي بدأتها ولم أجد نهايتها بعد .

عش كما تقدر أن تعيش فسوف أزورك في حلمك وأفكارك .
واعلم يا من قد ملكت قلبي بأنني، سأظل أحبك على الدوام" .
قرأها، يتذكر اسم مريم، يتذكر أنه قد أحبها يومًا، لكنه لا يذكر شكلها ولا يذكر قصتها .
ألتلك الدرجة قد أصبح مجرد عائق في تيار الزمان؟
يجلس على ركبتيه ينظر إلى الأرض في خضوع وإزلال يردد بصوت هامس .
- مريم، من أنت؟
لا يذكر سوى اسمها، ينتفض في داخله كل أسباب الانكسار .
وما ذلك الحب الذي يبقى حتى وأن فقدت الذاكرة، ألتلك الدرجة كان يعشقها لدرجة أنه لم ينس اسمها حتى وأن نسي الكون قاطبة .
في تلك الأثناء كانت سما في غرفتها تدقق النظر في ذلك الاسم على يدها وتتمتم بصوت منخفض:
- يوسف .
تبتسم وتتذكر أن ذلك الرجل هو من أحياها بذلك السجن، تتذكر أول يوم حين التقيت به وكان كالطفل لا يدرك شيئًا، فأخذته في حضنها وآوته بين أوتارها .

"سما"

تستيقظ كل يوم على اسمه في يدها، تنظر إليه في كل ساعة، هي بالتأكيد لا تريد أن تنساه، حتى وأن فقدت ذاكرتها وأصابها المرض، اختارت أن يبقى اسمه في مخيلتها دائمًا .

تنظر إلى المرآة تمشط شعرها تنظر إليها وكأنها تراه بالتأكيد قد عشقته، ذهبت إلى غرفته من باب الشرفة أخذت تدق الباب .

خرج من الحمام بعد أنا أخفى آثار الدموع وقد ابتسم ابتسامة مصطنعة وفتح لها .

نظرت إليه بدهشة قد أحست ما بداخله:

- ما بك يا يوسف هل تبكي؟

- لا لكنني للتو استيقظت من النوم .

نظرت إليه وقد تطاولت لحيته كثيراً .

- حسنًا تعال معي .

أخذته من يديه إلى الحمام .

- ماذا ستفعلين؟

- لحيتك طويلة سأقصها .

ابتسم وقد أعلن الخضوع لها .

أخذت آلة الحلاقة وأزالت ذقنه بالكامل .

- انظر كيف أصبحت لحيتك أجمل .

- عيونك هي الأجمل،

أتعلمين أن اسمي يوسف فعلًا كما سميتيني .

نظرت إليه بدهشة:

-أتمزح معي؟

- والله .

وأخرج بطاقته وأراها اسمه .

- كيف عرفتيه إذن أعرافةٌ أنت؟
- لقد أخبرتك سابقًا عن الرواية، التي كنت أقرؤها وقد تشابهت مع بطلها .
- لكنها صدفة جميلة،
أتسمحين لي أن أعطيك اسمًا؟
ضحكت له:
- لكنني أعلم اسمي جيدًا .
قاطعها وقال:
- أنتِ اسمك مريم .
اندهشت قليلًا:
- ولما ذلك الاسم؟
- سأخبرك لاحقا .
خشي أن يخبرها أنه اسم حبيبته الأبدية أراد يوسف أن يرى مريم بها، أراد ألا يفتقدها في حديثه، أرادها أن تكون بجواره حتى وأن لم تكن على هيئتها الحقيقية، ولكنه اشتاق لها .

. . . .

لم تكن الأيام لتمر عليه في تلك المصحة مرور الكرام إطلاقًا .
وكأن كل يوم يزيده قهرًا وألمًا لا يدري لما أتى إلى ذلك المكان لا يتفوه إلا باسم مريم لعله يتذكر شيئًا .
يكرر اسمها مرارًا قبل نومه لعله يرى شيء في منامه، لكن كل شيء يقسو عليه .
لا شيء يحبوه أمنًا إلا تلك الأزهار والنجوم وسما .
تلك الفتاة التي أحبته ولكنه لم يقرر مصيره تجاهها، فقلبه يستعطفه تجاهها فقط .
الأجواء هادئة ليلًا، الجميع في غرفته لم يكن سواه في الحديقة يجاور ذلك العجوز الهرم .
يجلسان على مقعد محاط بأزهار النرجس أمامهما الأشجار ومن فوقهما رقعة السماء التي صارت كلوحة فنية معقدة .
ينظر إلى السماء يدقق في النجوم ويحسدهم .
بجواره العجوز يرتدي رداء المصحة الأبيض، بينما يوسف قد استقر به المطاف على

قميصه القديم، فقد سئم من لباس المرضى وتركه جانبًا .
نظر إلى العجوز وهو ينظر إلى السماء:
- لقد أرسلت لك سلامًا معي .
نظر إليه وقد ازدادت التجاعيد في وجهه اندهاشًا:
- من هي؟
- فريدة .
- هل عادت؟
- لا لم تعد، لكنني رأيتها بالسماء .
وقف العجوز بسرعة ناظرًا إلى السماء .
-أين هي؟ أنا لا أراها .
- انظر جيدًا فقط .
- حسنًا لقد رأيتها .
عاد إلى مكانه ناظرًا إلى الأرض، وكأنه يخجل من النظر إلى السماء مرة أخرى، أي أنه يخجل من رؤيتها،
ابتسم يوسف، يعلم أنه ما دام يحبها فسيتخيلها في أي مكان حين يذكرها .
- أنت طيب جدًا يا والدي،
ما اسمك؟
- أنا اسمي . . .
صمت ولم يكمل .
- من طرد اليهود من مصر يا بني؟
عبد الناصر؟
-لا يا والدي عبد الناصر لم يطرد أحد من مصر، هم من هاجروا وحدهم .
-إذن لماذا هاجرت فريدة وتركتني؟
البيت في الأسكندرية قد أكله الملح وحين أمر عليه لا أجدها،
هل أنت يهودي يا بني؟
صمت يوسف وأخذ يفكر اتجه بنظره إلى موضع الصليب المنزوع .
بالفعل قد تذكر أنه أسلم يومًا .

- لا أنا مسلم،
لكنني لم أولد مسلمًا .
رفع العجوز سبابته وقال:
- وأنا مثلك أوحد الله، وهي تعلم ذلك فلما تركتني دون أن تخبرني، لم يكن الدين حاجز بيننا أبدًا، كنت دومًا أخبرها ذلك، لكن من المؤكد أن هناك شيئًا أقوى من كل هذا .
- لقد أخبرتك سابقًا أنها بالسماء، إذا افتقدتها فما عليك إلا النظر إلى السماء .
نظر العجوز إلى السماء وابتسم، وهم بالقيام وظل هكذا ناظرًا إلى السماء حتى وصل غرفته .
- أما أنا فلن أراكِ مرة أخرى يا مريم أم أن للصدفة رأي في سعادتي فما زلت أؤمن أنك لم تموتي بعد .
غادر إلى غرفته منكسرًا، لم يفكر إلا بسما ومريم وبعض عن نفسه . ينظر إلى بطاقته يمعن النظر لا شيء يرهقه سوى النظر بها .
يفشل كالمعتاد ويتجه إلى تلك الشرفة .
وأخذ ينظر من جديد إلى يده لعله يتذكر شيئًا، ولم يقطع وصلة تفكيره إلا رائحة السجائر، فينظر عن يمينه فإذا بمريض في غرفة مجاورة يستلقي على أرض الشرفة ممسكًا سيجارته ومرتديًا زى المصحة الأبيض وقد كان شابًا عشريني، حالقًا شعره تمامًا لا يأبه لأي شيء، فقط يدخن بعمق واستمتاع وينظر إلى دخان سيجارته المتصاعدة، وكأنه يعزف لحن حزين مرسوم على السماء .
تعجب يوسف من ذلك المشهد وبدأت التساؤلات تثيره:
- ماذا تصنع هل سُمح لك بالتدخين هنا؟
لم يجبه الشاب، ظل جالسًا مكملًا سيجارته، ولم يهتم له ربما أراد يوسف ولو سيجارة واحدة لكي ينفس من نفسه بعض الكتمان الذي خنقه وقد وجد في دخان السجائر حلًا مثاليًا لا جدوى منه .
تحرك ناحيته واستلقى بجوار ذلك الفتى، لم ينطق شيئًا خجل من طلبه ولو سيجارة واحدة فلم يكمل تخيلاته حتى أخرج الفتى سيجارة من جيبه وأعطاها ليوسف .
- شكرًا لكنني أثارني الفضول كيف دخلت بها إلى هنا؟

نظر إليه الفتى:
- هل ترى أي أهمية لسؤالك؟ هل ستتوقف الحياة دونه؟ هل ستهدأ إذا أخبرتك بالإجابة؟
إذن لقد سرقتها من أحدهم هنا .
رأى يوسف كم اللا مبالاة التي تنبعث منه ربما هو مثله وربما بحالته تلك هو أسوأ منه .
- ما اسمك؟
ضحك الفتى:
- أنت مصِّرٌ على تلك الأسئلة التي لا جدوى منها .
- لكنني لا أعلم أحد هنا، ربما لو تبادلنا الحديث سنهدأ قليلًا .
- حسنًا إذن لقد أخبروني أنني أملك شخصيتين شخصيتي الهادئة تلك، وأخرى مريضة،
لم أتعرف بعد على شخصيتي المريضة، ولكنني قد سمعتهم يصفونها أنها أشبه بالمجرمين، أي أنني من الممكن أن أقتل أي أحد .
انتفض يوسف وبلع ريقه حتى ضحك الفتى:
- لا تخف أنا أمزح معك،
ما اسمك؟
- يُقال أنني يوسف .
- ولما أنت حي إلى الآن يا يوسف؟
- وهل بيد المرء أن يكون حيًا أو ميتًا؟
- وما فائدة أن تكون حيًا ميتًا؟
أتعلم أنني كل مساء يعبر جسدي كم هائل من الكهرباء، وهم يدعون أنها تعالجني وأنا لا أرى فيها أي شيء غير الألم،
وهل يوجد علاج بالألم يا يوسف؟
- يوجد إذا كانت حالتك المرضية أشبه بالألم .
-أنا لم أر حالتي المرضية، يقولون أنني أندفع وأصبح أشبه بالمجنون المنتفض الذي يذهب عقله لبضع لحظات ولكننى أعلم أنهم كاذبون،

هم يريدون لي الألم فقط،
وأنت يا يوسف ما الذي أتى بك إلى هنا، إن هذا المكان أشبه بالموت الذي لا فرار منه .
- أنا لا أعلم سبب وجودي هنا لكنني أبحث وأتمنى أن أعلم .
- إياك أن تبحث ابق هادئًا هكذا، وتريث في أمرك فأنت لم تتذوق ألم الكهرباء، أتعرف أن ألم الكهرباء أهون عندي من ذلك السجن بالأسفل .
- سجن؟ أي سجن؟
- إذن أنت جديد هنا؟
هناك يا يوسف غرف أشبه بالسواد لا شيء بها غير الظلام، هي أشبه في كونها سجونًا يضعون بها من يحاولون الفرار أو الهرب .
-فرار من ماذا؟
- فرار إلى الموت .
أما من يهربون إلى موت الحياة في الشوارع أو من يهربون إلى الموت الحقيقي، الذي لا عودة منه، وغالبًا هؤلاء الذين يهربون إلى الحياة سرعان ما يجلبوهم، أما أولئك الذي تنعموا بالموت فلن يستطيعوا أن يجلبوهم مرة أخرى .
- أنا لا أفهم شيئًا .
- ولن تفهم شيئًا .
- حسنًا هل تشعل لي سيجارتي؟
- خذ القداحة واتركها معك فمن الممكن أن تنفعك إذا أردت أن تشعل في نفسك يومًا ما .
ضحك يوسف:
- لا تخف لست بذلك الضعف .
ضحك الفتى:
- أتمنى أن تظل على قرارك، اصنع ما تشاء ولكن إياك أن تؤخذ إلى الأسفل فلا مهرب إلى الحياة ولا إلى الموت، ستظل عالقًا هكذا يا يوسف .
لم يعرف يوسف ماذا يقصد بذلك المكان بالأسفل، تركه وذهب إلى غرفته ونام على مضجعه وأخذ يفكر في حديث هذا الفتى الذي لم يفهم منه شيئًا على الإطلاق، أخذ

يبحر في عقله ويفكر في تلك التساؤلات التي طرحها ذلك الفتى الذي لم يعلم اسمه بعد .
لم يفصله من تفكيره إلا تلك الصورة التي انعكست على زجاج شرفته، فأخذ يدقق النظر حتى وجد الفتى وقد وقف على سور الشرفة فانتفض يوسف من مكانه وهب إلى الشرفة .
أخذ ينظر إلى الفتى وإذا به يرفع يديه موازيًا إلى كلتا كتفيه وينظر إلى الأسفل .
جميع أضواء المبنى منطفئة إلا تلك الشرفة حيث يقف على سورها ذلك الشاب، تنغلق عينيه من حيث لا يدري ترتعش كلتا يديه .
من أين قد أتى بتلك الجرأة التي لا يصل إليها سوى بضع أناس قد وصلوا إلى آخر مراحل الاكتئاب، ليقف على سور الشرفة بلا خوف أو فزع .
ينعكس الضوء عليه لينعكس خياله على الأرض، وقد ابتعد ما يقرب أحد عشر مترًا عنها، تلك الرسمة التي تفيض بكل أسباب الفقدان .
تتزحزح قدماه ببطء شديد حتى خرجت نصف قدمه، وتعدت حدود السور، يغلق عينيه حتى لا يصيبه الرهبة، ولكي يشعر بذلك الإحساس الممتع في نظره، فقد ظن أنه سيتخلص من همومه بتلك الطريقة ولا يعلم بأنه يتخلص من حياته فعليًا، رياح خفيفة تهب على الأنحاء لتنهي تلك اللحظة المفجوعة .
ينطلق يوسف كالبرق في لمح البصر حتى يتشبث به من الخلف ويقع عليه في أرضية الشرفة .
تتزايد ضربات قلب يوسف بينما تهدأ ضربات الآخر .
يظل ممسكًا به ويكتفه بكلتا يديه، لا يفلته إلى ذلك المصير القاتل .
يقول له يوسف صارخًا:
ماذا تفعل؟ هل جننت؟ -
تدخل الممرضات مسرعين إلى الغرفة بعد أن أفجعهم ذلك المنظر، يأخذونه قسرًا إلى غرفة الكهرباء، وهو ينظر إلى يوسف نظرة انتقام، وكأنه قد أنقذه من الموت ليلقيه في سجنه المؤلم .
ينظر إليه بعين متحسرة قاتلة يعلم بأنه ذاهب إلى غرفة عزل ليبقى وحيدًا كما كان,
ألم أخبرك يا يوسف أنهم كاذبون، ها أنا الآن في حالتي الطبيعية، ولكنهم لا -

يريدون لي غير الألم كلهم كاذبون .
خرج الجميع ولم يتبق إلا يوسف على أرضية الشرفة، مذهول لدرجة كادت أن تصيبه بالجنون، يرتعش كل ركن في جسده، يتعرق وجهه تمتلئ عيناه بالدموع وينظر إلى السماء .
فكانت السماء مأواه في لحظاته الدائمة، يعود إليها حين يتألم ويجاورها حين يسعد وإذا ضل الطريق تكون علامته المنجية . نزل مسرع إلى الأسفل، حيث وجد ذلك يتذكر تحذير الفتى من ذلك المكان الأشبه بالسجون يمعن المكان الأشبه بالزنازين، النظر إلى الأعلى إلى أحد النوافذ، فإذا به يجد ذلك الفتى وقد كان ينظر من خلف أسلاك تلك النافذة .
رآه يوسف حتى أصيب بالاندهاش والحسرة، وكأن يوسف هو السبب فيما هو، فيه فنظر إليه الفتى بنظرة ملؤها الحسرة والألم وكأنه يخبره: "ألم أحذرك من تلك الحجرة التي تفصل بين الحياة والموت والآن قد علمت أن الموت أهون إلينا"، قالها بنظراته التي ظلت تقتل كل خلية في وجدان يوسف .
ظل ينظر إليه يوسف يريد أن ينقذه مما ورطه به حتى انطفأ ضوء الغرفة فجأة، واختفى وجه الفتى عن زوايا رؤيته، وكأن القصة قد انتهت فلا عودة من تلك المنطقة الفاصلة أبدًا، ولا مرجع من ذلك السجن إلى يوم يُبعث .
سار يوسف إلى غرفته مكتئبًا وألقى نفسه على السرير سالمًا مستسلمًا لا يريد شيئًا سوى الراحة التي افتقدها منذ أن عادت إليه حياته مرة أخرى .
الأضواء منطفئة وقد تعمق في النوم، انتفض فزعًا من نومه ولم تتعد البضع دقائق وقد رأى ذلك الكابوس .
بيته القديم مشتعلًا بالنيران وأمه تقف على سور السطح وهو للأسف وحيدًا يصرخ وهي تنظر إليه وتبكي .
يزداد صريخه واستغاثته ولا يوجد أحد سوى الظلام والفضاء .
كل ذلك الكابوس لم يتعد فعليًا السبع ثوانٍ، لكنه رآه وكأنه عاش به مئات الأعوام يتصبب عرقًا ويختنق بشدة .
تذكر أمه الآن بالتأكيد هي أمه التي لا ينسى ملامحها تذكرها وتذكر موقف انتحارها ذاك حين كان صغيرًا ولم يقدر على تذكر اسمها .

يغمض عينيه ويرسم في عقله شكلها، يدقق في ملامحها كي لا ينساها مرة أخرى .
يؤمن بأنك لا تنسى شيئًا رأيته في الظلام عكس النور الواضح .
يتذكر شكلها وهو مغلق عينيه يريد أن لا يفارقه تفاصيلها تلك التي وهبته الحياة مرة ثانية .
لا يتذكر سبب محاولتها الانتحار، كل ما تذكره من ذلك الكابوس هو كونها فقدت الأمل يومًا كونها في الماضي رماد شعلة تناثر في المستقبل الآن .
كل شيء في ذلك المكان يوحي بالاستسلام ويدفعه للنسيان رغم نسيانه، والحزن رغم شقائه .
كل شيء وتفصيلة يدركها بكلتا مقلتيه في ذلك السجن لا توحي إلا بالفقدان واليأس, رغم أن حياته الآن مندرجة تحت وطأة النسيان .
يذهب إليها ليطرق بابها لم يجد ملجأ سواها "سما " هي نصفه الآخر في ذلك الكابوس، فلا مهرب منه إلا إليها، تعلق بها وما أدراك ما التعلق؟
حين تتشبث وكأنها أنشودة قد كتبت كلماتها بنفسك ولحنتها بعودك وغنيتها بصوتك وفى النهاية تجدها النهاية .
تفتح الباب في دهشة وهو يرتمي في حضنها في لهفة:
- ماذا بك يا يوسف؟
ينام في حضنها ويقول:
- لقد تعبت كثيرًا يا سما .
تتساقط دموعه عليها وكأنها تحرقها هي، بالفعل تكوي كل ذرة من جسدها تُهدئ من روعه وتتحسس شعره .
- لا تخف فأنا بجوارك .
ظل طوال الليل هكذا فقد وجد الأمان الذي ابتغاه ولم يجده إلا في حضنها .
وجده في الليل الهادئ والضوء الخافت الذي أنار وجدانه وأخذ يشدو عليه بضوء النجوم الدافئ، هي "سما" .

"وما بين ثنايا القدر سأجدك وأنت إليّ القدر"

لماذا لا نعجل بالفراق؟
لماذا ننتظر رغم أن الجواب قد كتب سابقًا وتحددت ملامح القدر وأن الفراق قادم لا محالة .
لماذا المزيد من الشوق الذي يعطي الرواية طابعًا من الإثارة الكلاسيكية المعروفة .
هو مثل أولئك الذين يسرعون إلى معرفة النهاية، يعلم أنه ليس حمقًا ويعلم أنه ليس تهميشًا لجانب الإثارة التي بنيت على أساسها قصة الرواية، ولكنه يسافر إلى المستقبل قليلًا حتى يضيف الرتوش التي يفضلها في حاضره .
كان أول شيء يشده في أي كتاب أو قصة ليس العنوان وحتمًا ليس ذلك الوصف الأحمق في مؤخرة الرواية، والتي قد تعطي أحيانًا وصفًا كاذبًا عما تحويه الرواية من قصص ليست مشوقة كما يظن .
وبالتأكيد ليس الإهداء في أولى الصفحات هو من يلفته قبل شراء الكتب بل" النهاية ".
هو مختلف عن الكثيرين بل هو حالة فريدة من نوعها .
لا يشتري رواية إلا ويقرأ نهايتها أولًا، فإذا أسعدته ورسمت شيئًا من الأمل اشتراها، وإذا وجد بها بصيصًا من الحزن أعرض عنها وتركها .
لم يكن يعلم أن روايته وقصته في حياته سوف تنتهي نهاية لا يفضلها، نهاية لن يستطيع أن يعرفها لأنه لن يكون في ركاب الحاضرين .
يجلس في ذلك المكان الغريب لم يتبين أركانه وتفاصيله، وكأن عينه تراه للوهلة الأولى، ضوء خافت هادئ ينسجم مع هدوء المكان، يجلس وحيدًا ينتظر مريم .
فالعشق دائمًا يتحمل الانتظار فالعشق هو الصبر والاشتياق أو هي تلك الأتعاب التي تحدث نظيرًا لمتعة الحب .
لا ييأس أبدًا من انتظارها بل في انتظاره لها متعة خاصة حين يتخيل لحظة اللقاء تلك التي تحطم كل أعباء الانتظار، وتجعل الحب في تعريفه هو ذلك الشعور اللا

متناه من اللا إحساس واللا شعور، فالحب لا يخضع لسلطة العقل بل الحب لا يخضع لأي قوانين على الإطلاق .
دخلت عليه مريم مبتسمة سعيدة، تنظر له تتأمل نصفها الآخر وتسبح مع عينيه في شلالات حبها، فهي تعشق النظر إلى عينيه فالنظر في عينيه عالم آخر أشبه بالخيال .
تجلس وتصمت وهو الآخر كذلك، هدوء قد تخلل في أرجاء المكان لا شيء غير المزيد من التأمل والمزيد من النظر في أعين البعض .
فجأة تنظر إليه بعين حزينة منكسرة:
-هل يذكرك اليوم بشيء؟
نظر إليها متعجبًا ولم ينطق بكلمة واحدة:
- اليوم ذكرى ميلادي يا يوسف، كنت أتمنى أن تتذكره لكن حقيقة الأمر أنك نسيتني من الأساس .
أتعلم أني ما زلت أحبك رغم كل شيء ورغم كل لحظة ألم قد عشتها دونك، لقد شعرت أن العلاقة بيننا ليست مجرد اثنين عشقا بعضهما البعض، العلاقة بيننا يا يوسف أكبر من ذلك ومن الصعب أن تنتهي بكل سهولة، كعلاقة الأم بابنها أو الأخ بأخته، أنت أكبر من ذلك يا يوسف .
- كل عام وأنت حبيبتي يا مريم، كل عام وأنت ساكنة بقلبي .
لم ترد عليه ربما تخلل الظلام مكانها ينظر في ذهول إلى كرسيها لم يجدها، أخذ ينادي عليها ولا يقدر على أخذ أنفاسه يتصبب عرقًا فأين ذهبت فجأة؟ وأين اختفت في تلك العتمة؟
يستيقظ فجأة من نومه وهو يتمتم:
- كل عام وأنت طيبة يا مريم .
ينظر في أرجاء حجرته يتذكر الآن لقد كان في حلم جميل، وكالمعتاد تحول إلى كابوس مؤلم .
ينظر في التاريخ على الساعة بجواره فإذا به التاسع والعشرين من فبراير .
يبتسم ابتسامة مجهولة الملامح وينظر إلى سقف حجرته بعين دامعة يتمتم في نفسه:
- حقًا اليوم ذكرى ميلادك يا مريم .

أخذت عينه تدمع وتتساقط الدموع على وجهه، يتألم وكأن القدر لا يريد أن يعطيه ولو قليلًا من الرحمة، فقد وهبه نعمة النسيان وأعطاه ألمًا حقيقيًا وهو تذكر مريم .
أحيانًا يصبح تذكر من نحب ألمًا حينما تنقطع الأواصر ويصبح الرجوع مستحيلًا، حينما ينقضي الأمر مع من نحب ويحتم القدر بقراراته الجائرة في أن يبعد القلوب ويشتت نسمات الحب .
يريد أن يتذكر شكلها ولكن عقله لا يستطيع، فهو وأن رآها اليوم في حلمه بكافة ملامحها، لكن عقله لا يستطيع أن يتذكر ملامحها، ألتلك الدرجة يعانده القدر؟
لم تكن رؤيته اليوم كباقي الرؤى، حين حلم بمريم فتلك المرة الأولى التي يرى تفاصيل ملامحها، تلك المرة قتلته فعليًا وزادته من لهيب الاشتياق .
ينظر إلى الجانب المبهج من ذلك الحلم، يرى أن اليوم يوم ميلادها إذًا فحلمه بمريم لم يكن يومًا كاذبًا، بل هي رؤية حقيقية ليصل إليها هو الآن متأكد أنها لم تمت .
يبتسم بتلك العين الممزوجة بلمعان الدموع ويهمس لنفسه:
- مريم ما زالت حية والله العظيم حية .
ينهض من سريره ليغسل وجهه، فاليوم بالنسبة إليه قيمته كبيرة في ذاتها، فعيد ميلاد مريم في التاسع والعشرين من فبراير لا يتكرر سوى كل أربع سنوات .
يتذكر حينما كانا صغارًا في المدرسة الابتدائية، وكانوا يحتفلون بأعياد ميلادهم في الفصل، يتذكر تلك السنين التي تجلس بها ولا يحتفلون بعيد ميلادها كانت تنظر إليه وتقول له:
- لماذا لا يحتفلون بعيد ميلادي يا يوسف؟
كان صغيرًا لا يعرف ذلك السر بعدم الاحتفال بعيد ميلادها الذي لا يتكرر سوى كل أربع سنوات .
- لا أعلم من المؤكد أنهم نسوا .
- وهل عيد الميلاد يُنسى يا يوسف؟
- كل شيء يُنسى يا مريم .
الآن هو يؤمن بمقولته تلك، يهمس بها الآن ويرددها بكلتا شفتيه .
- كل شيء يُنسى يا مريم إلا أنت يا مريم .
دائمًا كان القدر عائقًا في سعادتها وفى ابتسامتها يتذكر كم الأسى الذي مرت به ولكن

كل ذلك هين على أمره هذا، وكل ما هو فيه قد تلاشى بعدما أيقن أنها لا زالت على قيد الحياة .
يقطع تفكيره أحد يطرق على باب غرفته، فإذا بها الممرضة الخاصة بسما .
- كيف حالك يا يوسف؟
استغرب قليلًا من سبب مجيئها، فهي ليست ممرضته وليس بينهما أي حديث سابق رد عليها .
- الحمد لله .
- أريدك في موضوع ما .
- تفضلي .
دخلت الغرفة وأغلقت الباب مما زاد الأمر تعقيدًا إلى يوسف وزاده استغرابًا نظرت إليه بعين خجولة .
-أنا لا أستطيع أن أخرج أسرار المرضى لكني أراك أقرب الأشخاص إلى سما هنا أو أنت الوحيد الذي تعرفه سما هنا، فلعل ما أخبرك به لا يخرج من بيننا .
نظر إليها بعين منتفضة فهو يكره الانتظار:
-لقد انتابني القلق من فضلك تحدثي بسرعة .
-سما لم يعد يتبقى لها في الحياة سوى شهور معدودة .
بدا الحزن على وجهه وبدأ بصيص الانكسار يخرج من ملامحه .
- للأسف أعلم ذلك .
-كيف؟
- لا يهم ذلك دعينا بموضوعنا الأكبر ما المطلوب مني فعله؟
- أنت بالتأكيد تعلم المطلوب منك .
- سما بداخل عيني ولا أحد يقدر مكانتها عندي لا تخافي .
- حسنًا اليوم ذكرى ميلادها، وكنا نريد أن نحتفل به لكي نغير الجو لها ونشعرها ببعض من السعادة .
وما أن سمع ذلك حتى وقعت عليه تلك الجملة كوقع الصاعقة،
فقد شاء القدر أن يكون نفس يوم ميلادهما ويشاء القدر أن يعاندهما في عيدهما الذي يتكرر كل أربعة أعوام .

يشرد قليلًا ويتذكر مريم، يتذكر الوعود والذكريات، يتذكر أنه وعدها ألا يعشق غيرها، وهو بالتأكيد لا يعشق غيرها، فكيف وسوف يحضر عيد ميلاد غيرها .
يتساءل في نفسه تلك الأسئلة التي قتلته، ولكنه أراد أن يضع فاصلًا بينه وبين سما، فهو وأن تعاطف معها وأحبها كصديقة لن يستطيع أن يخرق ذلك الفاصل ويهمش ما قد كان من وعود ستقتله:

- حسنًا سأحضر .
- لكني أريدك قبلها لنصنع بعض المفاجأت بغرفتها .

ابتسم وقال لها:

- أنا مستعد أن أفعل أي شيء في سبيل سعادتها .

لقد رأى الحب في مريم مقدسًا لا يمسه عتمة ولا يشفه اقترافًا لإثم الوداع .
فهي البقاء كضي لامع لا يتخلله ظلمة، ولا يخمد وميضها عن التوهج لتثير معها طيات قلبه وتدفعه إلى ما وراء الذكريات .
فهو قد عرف العشق فيها ولم يبصره قبلها، فهو سائر على درب العشق مؤمن بما قد سطر من وعود وما قد عاهدها من أسباب البقاء .
فالبقاء على العشق مرتبط بنهج العشاق، بعيدًا عن اختلاق الأعذار وما للقدر بسلطة على أذرع العاشقين .
يعلق الزينة على حوائط غرفة مريم، وينفخ البلالين الملونة، ربما أراد أن يثير بعضًا من البهجة على الأرجاء، أراد أن يشعرها بالقليل من السعادة .
يضع الأنوار على حائطها وتسلل إلى وجهه ملامح الألم رغمًا عن تلك البهجة المزعومة, لا يقدر أن يتخيل أنها ورغم تلك الزينات لن تقف مانعًا عن وداعها وعن انتهاء أنفاسها .
يفتح دولابها عن قصد يريد أن يتعرف على المزيد من كونها تلك الفتاة التي قتلته قبل انتهاء فترة حياته .
يرى ملابسها وقد تزينت بمجمع الألوان وبأجمل التطريزات يستنشق العطر المخلل بين ثنايا ملابسها، تدمع عيناه يتساءل ما حكمة القدر في ذلك هو مؤمن أشد الإيمان أن هناك حكمة لم يتعرف عليها بعد .
انتهى من تلك التجهيزات حتى حل المساء وأطفأ الأنوار جلس في غرفتها ممسكًا

بالكعكة التي جلبتها ممرضتها الخاصة، والتي طبعت صورة تذكارية لها عليها .
يجلس على سريرها في الظلام ممسكًا الكعكة في يده ولم يظهر عليه ملامح السرور إطلاقًا، لربما انعكست بعد الأنوار على وجهه لتظهر ملامح الألم المستتر وراء تلك الابتسامة المصطنعة .
ينتظر قدومها وكل لحظة تقتله وتزيده همًا فوق همه، يتذكر في أحد المرات حين أخبرته مريم أنها تعشق الشيكولاتة وتعشق الورود البنفسجية .
يؤمن قليلًا بالأبراج ويعلم أن الأشخاص المشتركين في نفس البرج يمتلكون صفاتهم الخاصة والمميزة .
أخبر سابقًا الممرضة أن تحضر الكعكة بالشيكولاتة فقط، لا مزيد عليها ولا ينقص شيء عنها .
ربما لم يخبرها عن الورود البنفسجية أخبرها فقط أن تجلب ورود حمراء، أراد أن يترك الورود البنفسجية لمريم فقط أرادها لها وحدها .
يسمع ضربات الأقدام تقترب على باب الغرفة يجلس وقد رسم على وجهه ابتسامته المزيفة ينتظر دخولها .
تفتح الباب ولا تدري شيئًا قط لا تعرف أن اليوم يوم ميلادها، ولا تعرف عن تلك المفاجأة شيئًا قط .
تفتح الباب لتفتح في قلب يوسف بابًا جديدًا من الألم وتبعثه في منبع الوجع الجديد دخلت وأضاءت نور الغرفة مرتدية فستانًا أبيضًا، متزينة وينساب منها عطرها الذي يقتل يوسف، ذلك العطر الذي لو علم بأنها سترحل قريبًا لأقسم ألا يخرج أي نسمة من بعدها .
تنظر إليه في ذهول، يبتسم لها تشتعل الألعاب النارية المعلقة على جدران الغرفة لترسم أجمل المفاجئات على وجهها .
تنظر إليه مبتسمة بعين دامعة وهو يقول لها:
- كل عام وأنت طيبة يا سما .
تقبل إليه ببطئ والدموع على خديها، يعطيها باقة الورود ويخرج الكعكة، حتى رأت صورتها في السادسة من عمرها، تبتسم ابتسامة ممزوجة بدموع الفرحة وتأخذه في حضنها .

ربما كان الحضن خير جواب على هذا الصمت، فالحضن أقل تعبير عن الحب، والحضن مدفن الذكريات ومهوى العشاق ومنبع الاطمئنان .
تحتضنه وتتمنى لو غاب هذا الحضن سنينًا وسنينًا أرادت أن تظل عالقة فيه أبد الدهر، هي تعشقه وتراه منجدها من سجنها هذا، فهو الوحيد الذي تعرفه في عالمها وهو الوحيد الذي أخرجها من عتمتها تلك، رغم أنه لا يبادلها نفس الشعور وظل متمسكًا بعهده القديم مع مريم .
يجلسان في الشرفة تحت ضوء القمر الهادئ، تستنشق تلك الورود وتقول له:
- شكرًا على كل شيء وشكرًا على هذا الورد الجميل، لكن يا ليته لو كان بنفسجيًا .
اصطدمت تلك الكلمة في جدران قلبه، ربما أحس بالذنب أنه منعها من تلك الورود الذي احتفظ بها لحبيبته الخاصة، اضطر أن يغير الحديث فنظر إلى صورتها على الكعكة .
- أتعرفين أنك كنتِ جميلة جدًا في صغرك .
- حسنًا والآن .
رد عليها مبتسمًا:
- الآن فقد أصبحت مثل القمر .
ضحكت ضحكة خجولة:
- أتعرف أنني لم أكن أعلم أن اليوم ذكرى ميلادي،
لكن تقريبًا هذا أفضل عيد ميلاد حدث لي، إن اعتبرت أن هناك أعياد ميلاد صنعت لي من قبل .
- عيد الميلاد ميزته أن نكون بجوار من نحب، لكن وما فائدته دون ذلك .
- وكيف عرفت أن عيد ميلادي هذا لم يكن بجوار شخص أحبه؟
وجعته تلك الجملة، أراد أن يخفي مظاهر الوجع من على وجهه، لا يريد أن يسمعها منها، لا يريد أن يخلف عهده القديم ولا يريد أن يجرحها أو أن يطفئ شيئًا أحبته، أراد أن يغير الموضوع مسرعًا حتى وقعت عليه جملتها التي قتلته بعد الصاعقة الأولى .
- يوسف، أنا أحبك .
نظر إليها مذهولًا وقد شلت حركة لسانه عن الكلام .

- ممكن لأني لا أملك أحد غيرك الآن، ولأنني لا أعرف أحد غيرك أو لأنني لا أحب أحد دونك .

قالتها مبتسمة ووجها أحمر كالمراهقات حين يعترفن بحبهن، قالتها وكانت منتظرة أن يبادلها شعورها، لا تعلم أنه قد قتل منذ لحظات .

وجه نظره ناحيتها وقد وجد صعوبة في ذلك، لا يريد المزيد من الغرق في عينيها لا يريد أن يجرحها .

- أمثالنا لا ينبغي لهم الحب يا مريم .

قام مسرعًا وقد أطلق هو الآخر لهيبًا قد أحرق ما قد تبقى لها من أمل وما قد تخيلته من حب .

أسرع إلى غرفته وألقى نفسه على سريره وقد تحطم كل جزء من جسده وقد اشتعل داخله .

يتذكر مريم، كل شيء يذكره بها، يتخيلها وهي تبتسم له وتذكره بوعدهما السابق، تذكره أن الفراق بينهما مستحيل، وأن الحب بينهما باق .

يتمتم لنفسه:

-لم أقدر أن أنطقها لأحد غيرك يا مريم، أحبك كثيرًا .

أخذ يتذكر حلمه في ليلته السابقة حين اختفت يوم عيدها، يريدها أن تعود، يريدها أن تجاوره بعد أن قتل نفسه وقتل فتاة لا دخل لها به، ولا علاقة لها بما هو فيه في أطلال القلوب .

فقد بقي ناسكًا في محراب العشق القديم، وأن رأى الضوء يخفت شيئًا فشيئًا وأن حل الظلام بعتمته، وهدأت ترانيم العشق وعم السكون .

وأن رأى الجميع يرحلون فقد ظل راهبًا في قدسية العهد القديم،

تذكر يوم اللقاء وقد أعاد تفاصيله وأعقد ما قد تفتت من رباط الحب .

أحيي قلبه مرة أخرى وأناره بما قد تبقى من بصيص شابه لحن الفراق .

"ذكرى ضائعة"

أذكر أنني قد عشت على مبدأ الفناء، ذلك المبدأ القاسي بل هو مؤلم في ذاته، فأحيانًا لا تعد القسوة ألمًا ولكني رأيت في مبدأ الفناء منتهى الألم .
أبي وقد مات قبل مولدي، أمي وقد حاولت الانتحار مرات عديدة حتى اختارها خالقها، مريم وأن أتعبتني بعناء البحث عنها وقتلتني بحقيقة بعدها عني آلاف المسافات، وشخصي وأن كان أكثرهم ألمًا في كل ذلك نعم إنه شخصي .
شخصي المجهول الحائر التائه بين طواحين الأمل، فتارة يحتويني الأمل وتارة يقتلني وأنا الضائع بين كل تلك الاحتمالات .
ومريم التي لم أتخيل أن يصبح عمري كله إلى الآن مرتبط بذلك الاسم، الذي قد جمع معه معنى الاحتراق، مريم تلك الفتاة التي قتلتني مرات ومرات، قتلتني حتى أشبعتني وما للحب بسلطة على تلك القرارات الجائرة المستحيلة،
فأنا في عالمي المجهول تحت سحابة الشوق وفوق أنداء الأمل الممزوج بالقهر، أرقد ونفسي أنتظر المصير .
أسير في تلك الأجواء الباريسية الهادئة، استنشق عطر باريس الخاص .
أعشق تلك الأجواء أنظر إلى برج إيفيل، ذلك الذي قد سجلت عليه العديد من النظرات ما بين نظرات العشاق المملؤة بالعشق والحياة ونظرات الفراق الموجوعة اليائسة، أم أنا فقد نظرت إليه بنظرة الحائرين التائهين في درب العشق، أنظر وقد شابت نظراتي قليل من الأمل أنظر وقد انتقتني تلك الأضواء اللامعة حتى تضيف علي بعضًا من الانتظار .
لم يقطع نظراتى شيء قط، ولم يبعدني عن تلك الأجواء ولم يخرجني من حالتى تلك أي نسمة عابرة، كل شيء يستحيل عليه العبور والتدفق في أعماقي في ذلك الموقف .
لن يستطيع كائن من كان أن يتخلل في نفسى إلا هي، "مريم" .
أحفظ صوتها كحفظي لاسمي أو أشد قليلًا، أعرف رائحتها حتى امتلأت خلايا جسدي بعطرها وتخلل عطرها في أعماق ذاكرتي .

فاجأتني قائلة:
- أتذكر حين أخبرتني يومًا أن الأحلام مجرد كذبة نكذب بها على أنفسنا، وأنها مجرد شعور ليحثك على الأمل إنما الأحلام في حقيقتها لم تُخلق كي تتحقق وأن تعريفها أنها أشياء غير قابلة للتحقيق .
نظرت إليها وقد اشتقت لصوتها وعينيها وكافة تفاصيلها:
- أنت الاستثناء الوحيد يا مريم، صدقيني فقد كنتِ ولا زلتِ حلمًا ولكن لم يتحقق بعد،
الحلم ليس مجرد شيء يتحقق وينتهي أو لا يتحقق من الأساس، الحلم يا مريم قائم على مبدأ الخلود، لا يوجد حلم لا يموت أو يتحقق سوى حلمكِ أنت .
- حسنًا، أتذكر حين أخبرتني قديمًا أننا سنزور باريس يومًا وسنرى برج إيفيل وسننحت اسمنا في شوارع باريس، أتذكر حين أخبرتني أنه لو تحقق ذلك الحلم ستحملني على أكتافك وستأخذني لشوارع باريس كلها .
ابتسم لها وقام بحملها على كتفه وهي تضحك وتنظر إلى باريس وهي أعلاه وتقول له:
- أنت الحلم الذي لم يكتمل بعد يا يوسف .
وما أوشك أن سمع منها تلك الجملة حتى استيقظ من نومه على صوت سما وقد أخذت تتلاعب بخصلات شعره .
تجلس على سريره مبتسمة تتأمل وجهه تنظر إلى ملامحه وكأنها تستزيد منه العشق, وقد نسيت ما حدث في نهاية الليلة السابقة من ألم وصدمة كادت أن تقتلها لو أنها ما زالت منعمة بنعمة التذكر، ولكن لآفة النسيان وضع آخر في حالتها تلك .
فالنسيان أحيانًا يصبح من أجمل النعم التي يحسدها الأصحاء على ذوي العقول المريضة .
ينظر إليها يوسف مبتسمًا يعلم أنها نسيت كل ما هو مؤلم في ليلة البارحة .
يصمت يوسف ولم تغادره ابتسامته، ينتظرها حتى تبدأ في الحديث، لكنها فضلت الصمت هي الأخرى، لا شيء غير التلاعب في خصلات شعره والنظر في أعماق عينيه .
تمسك يده وتفتحها تتحسس اسمها المكتوب على باطن يده .
تنظر إلى عينيه وتخرج تلك التذكرتين إليه ينظر لهما باستغراب .

- ما هذا يا سما؟
ردت عليه بابتسامة ظلت على وجهها .
- باريس .
يستفيق من جلسته تلك يتأكد من كونه قد استيقظ من نومه وقد غادر أبواب حلمه الفائت، حتى تأكد أنه في قمة وعيه ظل متعجبًا مندهشًا .
وهي أخذت تنظر إلى المرآة وتدور حول نفسها في حلقات استعراضية .
تصفف شعرها في المرآة وهو الآخر كالمجنون .
- لا أفهم شيئًا على الإطلاق .
استدارت إليه:
- وأنا أيضًا لقد استيقظت من نومي على تلك المفاجأة من والدي كهدية لعيد ميلادي .
-هل تذكرين والدكِ؟
نظرت إليه وهي متعمقة في التفكير:
- لا أعلم ولكن كثير من الأوقات أنساه وأوقات قليلة حين أحتاجه أتذكره ثم أعود أنساه مرة أخرى .
لكني أؤمن أنه يريد السعادة لي وذلك الشيء لا يوجد به شك .
أخذ يفكر في صدف القدر تلك التي جمعت أحلامه مع مريم تتحقق مع سما، تلك الفتاة التي أنقذته ولم تستطع أن تخطف قلبه من مريم ولو لوهلة .
هل دومًا العشق لا يعرف إلا الموت، ليس في مفهومه القتل الجسدي بل ذلك القتل النفسي المؤلم، يؤمن أن العشق مرتبط بالألم وإنه لا عشق بلا ألم ولا ألم بلا عشق، وحين قرر الاعتزال عن رغبات العشق وجد في ذلك انتحار وموت قد يفوق حدود الألم .
تنظر إليه سما قائلة:
- في ماذا تفكر؟
- أنت بريئة جدًا يا سما وتلك البراءة من الصعب إيجادها بالأصحاء لكني متأكد أنك لو كنتِ سليمة لكنتِ أكثر براءة .
أتعلمين أن سفري لباريس ستتوقف عليه حياتي القادمة وسيتوقف عليه مستقبلي .

- لا أفهمك .
- الموضوع معقد جدًا لكن صدقيني سأذكركِ دومًا حتى وأن نسيت نفسي في يوم من الأيام .
أقبل عليها وأخذها في أحضانه وظل يبكي .
لا يدري ربما أحس أنه سيلقى مريم هناك، ظن أن اللقاء قد اقترب، شعر وكأن كل الأشياء تدعوه للاقتراب وتدعوه أن يخوض مغامرته تلك .
أصبح أشد الإيمان لأحلامه تلك التي يراه في منامه وازدادت ثقته في مريم، فهو يصدقها في الواقع ويصدقها بشدة في الأحلام، يعرف أنها لا تكذب في حضرة العشق، ويعلم أنها تريد أن تراه بنفس الشدة التي يريد أن يحتضنها بها .

. . . .

بعد يومين .
يستمع إلى صوت المذياع في غرفة سما مبتسمًا ترى في وجهه الحياة، وكأنها ترتدي زيها في ليلة رأس السنة .
هذه بالفعل ليلة فارقة في حياته، فبعد ساعات سيذهب إلى مدينة الأحلام "باريس"، لا يتذكر أنه قد تمنى الذهاب إليها في الماضي ولكنه مقتنع أنه لو عاد إلى الماضي لتمنى ولو حتى العبور من أمام أحد شوارعها وأن يستنشق رائحة العطور الفرنسية ويتنفس أجوائها المفعمة بالحب .
يلتفت إلى صوت الماء المنساب في الحمام وقد غابت سما فقد تعدت وقت الاستحمام الطبيعي .
يطرق باب الحمام:
- سما، هل انتهيتِ؟
لم تجبه بادئ الأمر رفع صوته قليلًا:
- هل تسمعينني؟
- لقد أوشكت على الانتهاء يا يوسف .
انتابته الحيره فلم يجد في صوتها ما عاهده من نبرة قد حفظها وعشقها وسجلها في خلايا عقله .
كانت تتقيأ بالداخل، تجلس على الأرض وقد احمر وجهها وقد اشتد عليها نوبات

المرض .
لم تستطع أن تخبره وأن تكون عائقًا جديدًا أمام حلم من أحلامها، أو أن تكون عنوان النهاية لتلك الفرحة المنتظرة والحياة الجديدة التي تنتظرها .
تنظر في يدها ترى اسمه وتدقق النظر فيه، تخاف أن يشتد المرض وينسيها يوسف، تدمع عيناها لا تدري إلى أي درجة من الفقدان قد وصلت، هي وحيدة ولم يتبق لها سواه، تبكي وتنظر إلى اسمه تمسح دموعها بتلك اليد التي نحتت بها اسمه، وكأنه من يمسح دموعها، هو بالفعل ذاك .
من تلك اللحظة التي رأته وقد أرشدها إلى بوابة الحياة بعد أن خرجت روحها وتبقت في منتصف المسافة بين الماضي والحاضر وما بين الحزن والحياة .
أخذ بيديها وانتزع روحها وشعرت معه بالأمان التي لم تجده في الكون بأكمله .
فضلت الصمت والكتمان، فضلت أن تتحمل الألم في سبيل حلمها وقد رأت أنه سيضيع ألمها يومًا وهي بجواره تحت سماء باريس .
يستمع إلى فيروز وقد أعلى صوت المذياع وأخذ يحضر حقيبتها ويضع أغراضها وملابسها .
يستنشق بلوزتها الحمراء وقد تخلل عطرها الخاص في ثناياه، يغمض عينيه وكأنه في حلم لم يفق منه بعد، يستمتع بعطرها .
وبينما هو يحضر لوازمها إذ يجد كتابًا ليس بالغريب عليه رؤيته .
يجد في نفسه شيئًا من ذلك الكتاب، وكأنه يعرفه جيدًا يتذكر سما حين وضعت الوردة التي اسمتها حنين بين طياته، وقد كان المشهد بعيدًا عن عينيه فلم يستطع أن يدقق في تفاصيله أو يلمس غلافه الذي يشعر وكأنه قد أحسه من قبل .
لم يجد للكتاب عنوان وقد خط بخط اليد .
يتصفح أوراق الكتاب متعجبًا من كونه قد كتب بخط اليد، يتساءل في نفسه هل هي من كتبته أم أن أحدًا عزيزًا عليها قد أهداها إياه .
يقلب الصفحات ويقرأ بعينيه بعض الجمل التي خطفته وقد وجد اسم يوسف، ذلك الاسم الذي سمته إياه وقد اكتشف سابقًا أنها قد أصابت التسمية بعد أن علم أنه اسمه الحقيقي .
لم يثيره ذلك الاسم المكتوب في صفحاتها بأي اندهاش إنما ذلك الاسم الذي قد صعقه,

"مريم"
يذكر أنه قد عشق ذلك الاسم يومًا، فلم يمر عليه مرور الكرام .
فكيف وقد ترك آثاره في عقله فلن يكون كأي زائر يزوره في رحلته لاسترجاع ذاكرته المفقودة .
يقرأ بصوت منخفض .
"لم تكن مريم مجرد صورة أنثوية كغيرها بل كانت أقرب إلى كونها ملاك بشري،كانت ذلك النور المنبثق في غسق الحواس، تنير القلب وتهديه من ابتساماتها مزيدًا من الحياة، ترى في عينيها أمواج المحيط تلك التي ترتطم في جزر عينيك فتسحقها وتجعلها بقايا أطلال قد سحقها الجمال، كانت هادئة مضيئة في رونقها الجميل، وحين تشتعل تثير معها ملامح جمالها فتفتن أعداءها ويرتفع من جمالها إلى أعلى درجات الإعجاب" .
يقرأ ويذكر أنه قد قرأ ذلك من قبل، ربما بحكم كونه محب للقراءة ومدمن لها، وكونه شاعرًا يحب الأدب ومولع به، ولكنه يفكر في ذلك الرابط بينه وبين سما حتى يجمعه بها في موطن قراءاته وآدابه .
وبينما هو مندمج في تفكيره وتسيطر عليه تلك الكلمات التي تقتله في أعماق الذكريات، يقطع تفكيره صوتها وقد أقبلت عليه وقد كانت بائسة وهي تحاول بقدر طاقتها أن تخفي آثار مرضها وتحاول أن تشتت تفكيره في أن يلاحظ مدى ألمها أو أن يشعر بقدر تعبها .
اتجهت ناحيته بخطوات متحفظة لعلها تمسك خطواتها عن السقوط اتجهت إليه وهي تنظر إلى عينيه .
- هل حلمت بشيء قط وقد تحقق يا يوسف؟ هل شعرت بطعم الفرح يومًا بعدما تحقق ذلك الشيء في مخيلتك حين كنت تحلم بتحقيقه؟ هل حلمت بشيء من الأساس؟
اندهش من سؤالها:
- لا أعلم أو بالأصح لا أتذكر لكن ما أتذكره جيدًا أنني قد حلمت في يوم ما بأن أذهب إلى باريس، وحلمت أن استنشق العطر الباريسي وأنا أعبر من أمام برج إيفل وأشعر بالهواء الفرنسي الذي تعود معرفتي إليه عن طريق الشعر والروايات .

- وهل حلمت به وحدك يا يوسف؟
ومن منا يتمنى رؤية باريس وحده؟
قالتها وهو يعلم أنها تخبئ شيئًا وراء طياتها، يعلم أنها تريد أن تقول شيئًا أكبر من هذا، هل هي اطلعت على عقله لتعلم خفاياه؟ أم أنها تقرأ أفكاره؟ ومن أين لها أن تعرف مريم وأحلامه معها؟ يتساءل كل ذلك في نفسه حتى قاطعته:
- من المؤكد أنني أنسى لكن كل ذكرى لي سواء سعيدة أو حزينة أقوم بتدوينها في مفكرتي الخاصة حتى لا أنساها ولأني دائمًا ما أنسى موضعها لذلك فإني أحفظها مع صندوق الأدوية الخاصة بي، لأن ذلك المكان هو أكثر مكان اعتاد على الذهاب إليه لأني أشعر بالألم أوقات كثيرة وأنا الآن أشعر بالألم يا يوسف .
اجهشت بالبكاء الذي يقتله، فهو يكره البكاء ويكره أن يكون طرفًا فيه، حتى أخذ منها مفكرتها وهي جلست القرفصاء وكأنها تحيط نفسها بعالم بمفردها فقط .
أخذها وفتح آخر صفحاتها وقرأ بها:
" اعترفت ليوسف بحبي له أمس في مساء جميل لم يعكره سوى رده القاتل، ربما أحد ما قد أخذ مكان في قلبه، ولكن أي شيء لن يصبح بكم القسوة التي أطلقها في وجهي ولن يصبح بمقدار التعب والموت الذي أصابني .
شكرًا يوسف" .
قرأها وهو يشعر بالظلم فهو لا يملك الحق في أن يمنع قلبًا آخر في حبه ولا يملك السطة في أن يكسر القلوب ويحطمها ويجعل منها أطلالًا بائسة منتهية في زمن من النسيان .
يضم سما إلى حضنه .
- أعلم أنني كنت قاسيًا وقتها والدليل أني هربت حينها ولم أتحمل مواجهتك أو رؤية تعابير وجهك، لكن ليس الأمر بيدي وحدي صدقيني يا سما ليس الأمر ملكي .
لم تجبه فضلت السكوت والانطواء في طياتها ربما أراد أن تصمت وألا تنفجر في مشاعره وأن تنهي ما تبقى لهم من روابط أو أن تكون سببًا لإنهاء ما تبقى لها من أيام .
- حسنًا يا سما سأعترف لكِ بكل شيء ما دام ذلك سيريحكِ بعض الشيء، لقد أحببت قديمًا فتاة وكان عمري بأكمله وفتراتي الزمنية كلها متعلقة بها في الطفولة، وحين

كبرت كانت بالنسبة إليَّ أكثر من حبيبة كانت أمي وأختي وكل شيء في حياتي .
ومع الأسف ماتت وتركتني حتى بلا وداع أو أن أكون بجوارها، حينها رحلت ولا أعلم عنها شيئًا ولا أتذكر هيئتها، كل ما أتذكره عنها أنها حبيبتي وأني قد عشقتها كثيرًا جدًا، وأذكر أني ظلمتها وتركتها ترحل وهي بعيدة عني .
لكن منذ أن عدت إلى الحياة، ورجعت من غيبوبتي، أصبحت تزورني كل يوم في منامي وأصبحت أحلم بها كثيرًا، وكانت تقول لي أنها لم تمت وأنها ما زالت على قيد الحياة، أعرفتي لما كان ردي قاسيًا لكِ؟
لا أنكر أنني أحبك يا سما، وأنني حاولت بقدر الإمكان أن أعدل من علاقتنا لكي لا تتدرج لأشياء قد أندم عليها لاحقًا، لكني متأكد أنني إذا لم أكن وفيًا لحبي القديم، لن تحبينني قط وأنا الآن وفيت لمريم وأعيش على ذكراها، وإني لو نسيتها للحظة أو بعت حبي لها لن أكون فخورًا بحبكِ لي أبدًا .
ينظر إليها وإذا بها نائمة في حضنه مغرقة في أحلامها، يبتسم ويقبلها على خدها ويعدل وضعها على وسادتها، ينظر إليها ويتحسس شعرها يريد أن ينطقها ويخبرها بما قد كتمه في قلبه من أجلها ولكن العهود كبيرة عليه وقسم الحب القديم ما زال يتردد في ذاكرته .
يأخذ مفكرتها ويقرأ صفحاتها الأولى .
" أشعر بالوحدة والاغتراب أو أنني تائهة الآن في عالم لا أدرك تفاصيل أبعاده، اللهم كن معي فإني في أشد الحاجة إليك" .
يقرأ صفحاتها كلها عن الوحدة والانكسار والضعف حتى وجد تاريخ ذلك اليوم الذي استفاق فيه من غيبوبته .
"اليوم هو أول أيام حياتي في ذلك المكان، اليوم اهتديت إلى ذلك الشاب الذي هدأ من روعي، والذي استطعت أن أتمسك به لكي يعبر بي إلى ملاذ ذكرياتي ويعطيني شيئًا من الاطمئنان الذي كنت أبحث عنه في ذلك المكان المظلم" .
يقرأ وتدمع عينيه، ينظر إليها، ذلك الملاك البشري الهادئ لا شيء يشوبها إلا النقاء ولا شيء يعكرها من تفاصيل هذا العالم المقزز إلا الصفاء .
يقطع تلك الورقة التي تمثل ذكرى سوداء لها ولعلاقتهما يقطعها وهو مؤمن أنها لن تعود لها ثانيةً ولن تتذكر أحداثها ولن تكون سببًا من أسباب انكسارها مرة أخرى .

"الحزن سمة الجمال، والعجز داء المقهورين"

جميع اللحظات التي يدركها المرء ويبصرها في حاضره ويتخلل بين ثناياها، جميع التفاصيل والأحداث حزينها وجميلها بل حزينها وسعيدها لأن الأشياء الحزينة دائمًا ما تكون الأجمل .

كل شيء نتعايشه وننحت تفاصيله على جدران الذاكرة كل ذلك يتلاشى في المستقبل ولا تتبقى سوى الذكرى البائسة المؤلمة .

ذكرى لو كانت سعيدة نأمل أن نعود إليها فنعجز ومن ثم نتألم وذكرى أخرى حزينة مؤلمة تعيد معها أوجاعها ونعجز أيضًا أن نعود أدراجنا لكي نغير مسارها .

كل تلك الأشياء من الماضي ستصبح وبلا أدنى شك جزء من الذكريات المبكية ولحظات أُنس موجعة .

فلا شيء غير الذكريات باق ولا شيء غير نسمات الماضي ستصبح وستظل أبدًا الدهر في محافل الذكريات .

يقف يوسف على بعد عدة أمتار من سور الجسر المطل على البحر أمامه، حيث تقف مريم ناظرة إلى غروب الشمس، متأملة لحظة الشفق، دائمًا ما كانت ترى في التأمل السبيل الأمثل لراحة مؤقتة فقط، فهي تؤمن أنه لا دوام للراحة في حضرة الألم .

تؤمن أن الألم قد خلق لكي يصبح الإنسان في أعلى درجات القوة وأن بدون الألم ستصبح الحياة ضعيفة فاترة، ترى أن الألم والحزن هو العلاج الدائم للحياة فالحياة حزينة بطبعها ولا يداويها إلا ضربات الوجع تلك التي تزيد الحياة صلابة وتماسكًا .

ينظر إليها وكانت مرتدية فستانًا أحمرًا مثيرًا قد عشقه عليها وقد اعتاد على رؤيتها به .

تهب رياح شديدة لتطير بعض أجزاء الفستان وليغلق عينيه لشدتها ويتجه ببصره ناحيتها وقد أوشكت أن تلقي نفسها من فوق الجسر وهو ينظر مذهولًا مرتعشًا غير قادر على الكلام، عاجز عن الحركة يريد أن يجري إليها يريد أن يمسك بها ويحتضنها

يريد أن يبقى معها إلى آخر الزمان كل شيء قد حال دونه، كل لحظات القدر تعانده وتزيده من افترائها وقهرها له .
تلتفت إليه بوجهها إلى الخلف تنظر إليه بعيون منكسرة صغيرة جميلة من حزنها رائعة وهي تظهر تفاصيل ألمها لتقتل معه كل شيء لتطرحه أرضًا بلا أنفاس وبلا روح لتغمده بعيدًا عن وعي العالم .
تنظر إليه بنظرتها القاتلة وتقول له: "لماذا تركتني يا يوسف لماذا لا تريد أن تنقذني؟"
يحاول بشتى الطرق أن يهرع ناحيتها، يريد أن يلتقطها قبل أن تلقي نفسها، يريد أن يقول لها أنه لم يتركها وأنها ما زالت في قلبه ساكنة مطمئنة يريد أن يفعل كل ذلك ولكن " العجز" .
العجز أشبه بكونه كتلة من القهر والأحزان وقد اجتمعت لتدرك الإنسان وتقتله، العجز أسوأ أنواع الحياة، العجز لدى يوسف هو الحياة .
يقول في نفسه .
- لن تستطيع إنقاذها أنت عاجز .
ومن منا لا يصبح عاجزًا في منامه وفى حلقات حلمه، من منا أراد أن يطير في حلمه لكنه عجز، من منا أراد الانطلاق في حلمه لكنه فشل .
الحياة عند يوسف قد وهبته عجز الأحلام، ذلك العجز القاتل في أحلامنا، وحين نستفيق من حلمنا نتمنى لو أن ذلك الحلم لا يعود مرة أخرى لشدة العجز به .
لكن يوسف ليس لديه خيارات، ليس لكونه قادرًا على الاستيقاظ وقادرًا على ألا ينام حتى لا يفاجئه حلمه بذلك القهر .
ولكنه عاجز في الحياة ولا خيارات في الحياة لا رغبات ولا شيء متاح إلا القهر .
يستيقظ من نومه وهو يشهق ويتصبب العرق من كل جانب وكأنه كان في ملحمة قاهرة .
ينظر أمامه وينظر إلى جانبه يرى نفسه جالسًا على أحد مقاعد الطائرة، تبدأ أنفاسه في الهدوء وتبدأ يد سما هي الأخرى في تهدئته بعد أن تحسست خصيلات شعره وأخذت تمسح العرق عن جبينه .
- اهدأ يا يوسف ما بك؟
نظر إليها نظرة وقد امتلأت بكل أسباب الرحيل، ينظر إليها بتلك النظرة التي تسبق

الموت تلك النظرة التي تسبق الرحيل .
- كابوس يا سما، لا يريد أن يغادرني منذ أن أفقت من غيبوبتي كل يوم أحلم بها، وكل يوم يُثبت لي أنها ما زالت في ركاب الحاضرين، كل يوم يقتلني، وكل لحظة بالحذر ترسلني في مهب الريح، أنا لا أعرف ماذا أصنع يا سما .
يظهر عليها علامات التعجب، لا تفهم شيئًا منه تتساءل في نفسها من تكون مريم؟ وما تلك المهاترات التي يقولها لها؟ وقد نسيت مريم التي أخبرها بها يوسف، قد تخلص عقلها مما قد سلبت عقل حبيبها وسلبتها من حبها المكتوم .
تجاهلت ذلك السؤال وأخذته في حضنها أرادت أن تطمئنه وأن تأخذه من كوابيسه قليلًا .
ينظر إلى تلك النافذة التي تفصل بين عالمين مختلفين .
ففى الخارج يرى المحيط ومياهه الزرقاء والسماء الممتدة الرائعة، يرى وكأن الحياة بالخارج أشبه بحياة الطائر الحر الذي قرر الانطلاق في مختلف الأرجاء .
وأما داخل النافذة فلا يرى إلا شخصه المجهول الضائع المسجون بين جدران كوابيسه والمقيد في أغلال مريم، لكنه لم ير في مريم سجنًا رأى فيها الانطلاق ولكن أين مريم منه الآن .
يشعر بالاختناق لا شيء غير الاختناق، يريد أن يلقي نفسه من تلك النافذة وينطلق إلى أعماق المحيط .
يقطع تفكيره صوت سما:
- لا تفكر في شيء يا يوسف أغمض عينيك ونم، ولا تعمل تفكيرك في أي شيء، نحن ذاهبان لباريس وباريس يُحرم عليها الحزن .
تذكر الآن أنه في حضنها وقد وجد الحرية بين جدران جسدها وجد الأمن دائمًا ما وجده بها .
قد أخذ في النوم عدة دقائق لم يقطعه عنه إلا صوت شجارها مع الممرضة التي أرسلت معها لرعايتها في رحلتها تلك .
كانت تطلب منها بكل هدوء أن تناولها ذراعها لتأخذ الحقنة ولكن سما كانت دائمًا ما تخاف من تلك الإبر .
ينظر يوسف إلى تلك المشاجرة بينهما مبتسمًا إلى سذاجتها فكانت كالأطفال لا تشعر

بمدى قسوة حياتها وأن هناك أشياء تستدعي الخوف أكثر من تلك الإبرة الحمقاء . ينظر ويبتسم ويتذكر مريم .
يتيقن الآن أن حياته مرتبطة بمريم وذكرياتها، فهو وأن نسي تفاصيل حياته ما زال عقله يمن عليه بالمزيد من ذكرياتهما .
قد كانا صغارًا في المدرسة الابتدائية ودائمًا في بداية العام الدراسي تبدأ حملات التطعيم في ذلك اليوم الذي يمثل عند الأطفال لعنة لا بد منها .
يذكر تلك الأكذوبة التي كانوا يخادعونهم بها أنهم ذاهبون إلى رحلة إلى الملاهي والجميع في غاية السعادة ومن ثم تبدأ الممرضة في إخراج الأطفال طفل يلو الآخر من باب الغرفة، ومن هنا يبدأ الألم حين تنقض عليه ممرضة أخرى وتقوم بإعطائه تلك اللعنة التي كانت بمثابة الفزع الأكبر لهم .
يبدأ الأطفال في الفصل يسمعون أصوات الصرخات بالخارج، بعضهم يبدأ بالقلق والبعض الآخر لا يبالي وما زال متمسكًا بعقلية الأطفال الساذجة فرحين بأكذوبة الملاهي .
وبعد عام تلو العام أيقن الأطفال تلك الخدعة وما كان على الممرضة إلا بمواجهتهم بذلك البعبع دون خدع ودون أكاذيب .
يتذكر حين دخلوا الفصل وكان يجلس بجوار مريم، يذكر مريم كانت صغيرة بريئة وشعرها كان يمتزج به بعض الخصيلات البنية قبل أن يعمه السواد الرائع في الكبر، كان تضفره ضفيرتين يتذكرهما وكأنه يراهما أمامه وكانت عيناها صغيرة مرتدية ملابسها المدرسية القصيرة .
وهو الآخر كان شعره طويل مرتديًا نظارته تلك المربوطة بسلسلة فقد كان كثيرًا ما يكسرها حتى جلبوا إليه ذلك الاختراع الذي كان بائسًا في نظره فقد كان يكره تلك السلسة ويراها قبيحة المنظر، ولربما أراد حرية أكثر في الرؤية فدائمًا ما بحث عن الحرية .
يريد أن يصبح حرًا في كل مفترقات الحياة، حرًا في نظره، حرًا في سمعه، وحرًا أيضًا في حبه، ويرى أن الحرية في الحب هي أسمى أنواع الحرية وأكثرهم تعلقًا بثورة القلب وانتفاضات المشاعر .
دخلوا عليهم الفصل في ليلة سوداء الجميع منتفض الجميع يصرخ لم يبال يوسف

في صغره إلى تلك الصرخات ولا إلى نوبات البكاء، لم يكترث إلا لها فقط لم يبال إلا بمريم .
تلك التي أعطته حب الطفولة البريء النقي، ذلك الحب الخالي من كل أوجاع الحياة، يخلو من الخيانة ولا يشوبه الفراق، حب لم يمتزج به إلا قانون الديمومة، ذلك القانون الذي لم يطبق على شيء قط في الحياة سوى حب الطفولة .
لم يكن يخشى من تلك الإبرة التي تنغرس في الجسم وتعطيه وجعًا قليلًا لم يكن مثل أولئك الأطفال يصرخ وينوح ولربما هي من أعطته تلك القوة هي من أعطته مزيدًا من التحمل في سبيل حبه الطفولي المكتوم .
يراها وهي تنظر إلى تلك الممرضة بعين مرتعشة عين خائفة جبانة وكانت الممرضة تحضر الحقنة الأولى وكأنها تستغرق مائة عام في تحضيرها أخذ يوسف يحدق في عينيها يريد أن يطمئنها، يريد أن يعطيها مزيدًا من الاطمئنان، يمسك يديها يستشعرهما، ويمتص البرودة التي تخرج من ساعديها كانت يديها ترتعش من الخوف .
حتى جاء الموعد القاتل موعد النداء فقد أخذت الممرضة تفرغ الهواء المتبقي من الحقنة لتعلن عن بدء اللحظات القاتلة لهم تنظر إليهم .
- من أشجع واحد سيأخذ "الحقنة" الأولى؟
حالة من الصمت تعم الأرجاء والخوف يرتعد في أولى المقاعد تلك القاعدة المعرضة بدرجة كبيرة للبدء بتلك الحقنة المخيفة .
لم ينتظر يوسف كثيرًا أراد أن يطمئنها، أراد أن يقول لها أن الأمر ليس كما تتوقعه وليس كما تهابه، الأمر أخف من كل ذلك،
يرفع يده إلى الممرضة:
- أنا أريد أن أخذها أولًا .
ابتسمت الممرضة إليه وإلى شجاعته فقد علمت أن ذلك السؤال لم تسأله قط من قبل وأجابه عليها أحد من الأطفال تعلم في طياتها أن إجابة ذلك السؤال دومًا هو الصمت .
- ما اسمك؟
- اسمي يوسف .

- أنت أشجع ولد في الفصل يا يوسف ألا يوجد شجعان غيرك هنا؟
أرادت بكلماتها تلك أن تشجع الجميع، أرادت أن تعطي للأمر شيئًا من العفوية وشيئًا من الاطمئنان لأولئك الأطفال .
يوسف دائمًا ما كان يتصارع إلى الألم، يريد أن يتخلص منه سريعًا يعلم أن الألم آتٍ لا محالة، فلما الانتظار، ولما التوقف لرؤية آلام الآخريين، ذلك الانتظار الذي قد يعطيك طابعًا من الألم الذي أنت في غنى شديد عنه أو يعطيك ألم لم يكن مقدرًا في صفحات قدرك ألم مزيف ألم على أعتاق الآخرين .
يشمر ساعده وينظر إلى مريم مبتسمًا حتى انغرست تلك الإبرة في ذراعه وأخذت الممرضة تفرغ الدواء به، وهو ما زال مبتسمًا لم يسقط نظره عنها، ولم يقطع نظراتهما شيئًا، تنظر إليه هي الأخرى مبتسمة وقد زال من رهبتها .
يعود يوسف إلى مقعده ويقول لها:
- أتعرفين أنها لا تؤلم؟ أنا لم أشعر بشيء على الإطلاق .
نظرت إليه نظرة هادئة وقد اطمئنت:
- كنت أخاف من الإبر لكن الآن وبعد أن أخذتها أصبحت لا أخاف منها .
أخذت الممرضة تكرر ذلك السؤال مرة أخرى:
- هل من شجاع آخر سيأخذ الإبرة؟
وما أن أكملت سؤالها حتى ترافعت العديد من الأيادي بما فيهم يد مريم، الجميع الآن يتسابقون إليها يتسابقون إلى الألم .
وقد تعلم يوسف من يومها أن الإسراع إلى الألم ما هو إلى تهميش لوجعه، وإزالة لأضغان الألم أما الانتظار ما هو إلا موت مؤقت .
يتذكر يوسف ذلك المشهد الذي مر عليه في وهلة من الزمن يتذكر كل تفاصيل المشهد مبتسمًا وهو يحن إلى تلك الذكريات .
ينظر إلى سما يرى في وجهها ملامح الأطفال وبرائتهم، هل تلك الإبرة ستسلط عليها كل ذلك الخوف؟ هل لا شيء في الحياة يقلقها سوى تلك الحقنة؟
بالتأكيد لا ولكن لنعمة النسيان فضل ومنة ولنعمة النسيان أيضًا تعبًا وعلة، ولكن في حالتها تلك فلا ثمن للنسيان إلا كل فضل، فلو علمت ما استطاع عقلها نسيانه لماتت من همومها وغرقت في بحور أشجانها .

ينظر إلى الممرضة المصاحبة لهما ويغمز إليها قائلًا:
- هل من الممكن أن أخذ الإبرة أولًا لكي أوضح لها أن الأمر بسيط جدًا؟
صمتت قليلًا ولم تعرف ماذا تفعل حتى وكزها ذلك الرجل الذي قد أرسله والد سما لكي يرعى ابنته في رحلتها تلك إلى باريس، وقال للممرضة بصوت منخفض:
- أعطيه "حقنة" مقويات أو أي شيء لا يضره .
وفى الحين أعطته الممرضة تلك الإبرة وأخذ ينظر إلى سما مبتسمًا ممسكًا يدها وهو يوحي لها بتفاهة الموقف ويقول لها:
- وماذا تركتي للصغار إذن؟
رددت إليه ببرود وبوجهٍ عابس:
- لا دخل لك .
حان دورها لتأخذ حقنتها وأمسك يوسف بيدها مبتسمًا وهي أغمضت عينيها وكأن إغماض العين في لحظة الألم قد يخففه، بالتأكيد ما هو إلا مهرب مؤقت منه ولكنه لن يزيله أو يريح من وجعه .
- أعرفتي أنها لا تؤلم؟
أغمضت عينيها وقالت له في هدوء:
- "الحقنة" لا تؤلمني على الإطلاق يا يوسف فإذا كان وجع الإبرة فقط فأستطيع أن أتحمله لكنها بالنسبة لي ذاكرة من الماضي وذاكرة من الألم .
نظر إليها مستغربًا .
- ذاكرتكِ كيف؟
- أنا مريضة في مخي والمرض ينسيني أشياء ويذكرني بالأخرى لكن الإبرة عندما أخذها فتذكرني بمواقف مؤلمة متعلقة بها ووجعها يصبح أقوى من وجع الإبر أقوى بكثير .
- من الممكن أن تكون الإبر برهان وتفسير على كم الشجاعة والقوة التي كنتِ بها في مثل تلك المواقف .
قاطعته قائلة:
- هذا غير كافٍ يا يوسف الألم الذي يمر بي لا يقوي، الألم يُضعف، يُضعف فقط .

لم يرد أن يستزيدها تذكيرًا بذكرياتها كل ما عليه فعله هو أن يمسك يديها ويمدها بالقليل من العون المنتقص لأهوائها .
يعلن الطيار عن ربط الأحزمة ليعلن عن موعد الهبوط ولحظة الوصول لمدينة الأحلام .
ينتفض قلبه في تلك اللحظة يؤمن إيمانًا شديدًا أنه سيجدها بباريس، يؤمن أن أحلامه حقيقة ويعلم أنها ما زالت تحيا في عالمه ربما أراد أن يلتقي بها .
ينظر إلى سما وقد أخذت تتخبط يداها غير قادرة على ربط حزامها، ينظر يوسف وقد علم أنه لربما نسيت كيف يربط ذلك الحزام أو ربما تكن تلك أولى رحلاتها عبر السماء، لم يرد أن يسألها لأنه يعلم أنها لن تجيبه ليس بإرادتها ولكن لعجزها عن الإجابة .
ابتسم إليها وربط حزامها وأخذ يتلمس يديها وكأنه يقول لها لا عليك سأكون بجوارك دائمًا، لا عليك فليذهب النسيان إلى الجحيم .
وصلا إلى أرض الأحلام وقد لامست أقدامهم أرض باريس عاصمة العاشقين وموطنهم وملاذ الهائمين وقصر المتواعدين .
تمسك يده وكأنها تستوحش المكان، ربما شعرت بذلك للحظة الأولى، ولكن بعد ذلك ستعلم أن باريس هي الأنس وأنه لا وحشة في حضرة الأنس .
ينظر لها وقد تعجب منها، فهي للمرة الأولى التي تمسك يده وتقبضها وكأنها تريد المزيد من التمسك والتشبث به .
- أخائفة؟
- لا أخاف وأنا معك .
- لا أظن أن إحساس الخوف من الممكن أن يُعاش بباريس .
- بالنسبة لك باريس حرية عن ذلك المكان الذي كنا نقيمه أما بالنسبة لي العكس، لاننى لا أعلم غير ذلك المكان ولا أشعر بالغربة إلا خارجه،
تلك المستشفى تعتبر حريتي رغم كم الكبت بها والجدران وكل شيء مظلم بها .
- الجدران ليست حرية يا سما، والسجن أيضًا لم يكن يومًا براحًا، لكن لأنكِ لم تتذوقي طعم الحرية قط فإنكِ ترين الحرية بمفهوم خطأ أو مفهومك يدل على حرية مؤقتة لأسباب معينة ولكن باريس لم تكن يومًا سجنًا .

- سيكون كلامك صحيحًا فقط إذا شعرت بالحرية والراحة بباريس .
- باريس هي قبلة العشق .
- لكننا لسنا عشاق يا يوسف .
قالتها وأخذت تنظر في يدها لترى اسمه المكتوب على داخل يدها، فقد اعتادت على النظر إليه، اعتادت دومًا على ذلك حتى لا تنساه، اعتادت على أن يكون النظر في اسمه على يدها روتين يومي واجب تحقيقه .
وهو مثل وكأنه لم يبال لقولها أو أنه لم يسمع جملتها الأخيرة لم يرد المزيد من الحرج أو المزيد من الموت لها .
أتت السيارة التي خصصها والدها لهما، يقودها ذلك الرجل المسؤول عن سفرهما، تركب الممرضة بجواره ليستقبل الاثنين التائهين المقعد الخلفي .
تحركت السيارة إلى الفندق في شوارع باريس الهادئة الجميلة، تتشبث سما في يده وتسند رأسها على صدره وتنظر إلى العشاق في أراضي باريس .
كلٌ في فلكه يسبح وكل في عالمه يغني ترانيم العشق ويكتب أروع الأناشيد على شوارع باريس .
تنظر إلى عاشقين يتحاضنان وأخرين يقبلان بعضهما البعض وأخرين يتشبسان بيدي بعضهما ويجريان وأخرين يستنشقان الورود الجميلة ويغنيان .
تتمنى لو أنها مكان إحداهن ويوسف مكان الآخر تتمنى أن ينطق لها يوسف تلك الكلمة التي تعشقها الفتيات، تلك الكلمة التي تعلن عن بدء الارتباط وعن بداية لمسلسل من الهوى الفعلي الحقيقي .
تعرف أن باريس مرتبطة دائمًا بالحب وتأمل ألا تغادرها إلا وقد اجتمعت بيوسف في أواصر العشق وروابط الحق المفقود .
يوسف هو الآخر ينظر إلى تلك المشاهد ويبحث في عيونهم عن مريم فقد جاء إلى هنا بفعل القدر الذي تمنى له أن يأتي ليلقى بمريم .
ينظر في وجوه النساء، يتربص في تفاصيل وجوههن ويدقق في ملامح أجسادهن، يبحث عنها، يؤمن أن اللقاء قد اقترب ولكن القدر يأبى أن يعلن عن موعده بعد .
ظلا كل في عالمه مع من حوله، وكل في تفكيره وخيالاته حتى وصلا إلى الفندق .
....

. . . .

حل المساء ولا ينبغي لغروب الشمس أن يحل وأنت في باريس إلا وأنت بجوار برج إيفل .

هكذا كان يوسف جالسًا مستندًا على إحدى الأشجار وسما مستلقية على الأرض، نائمة مسندة رأسها عليه وهو الآخر يداعب شعرها ويتحسس خصيلاتها ناظرًا إلى برج إيفل المضيء أمامه وكأنه في موعد ينتظر مريم .

وكأنهما يجلسان عى عرش الهوى هي في قمة سعادتها حيث تجالس حبيبها وهو في قمة بؤسه حيث يبحث عن حبه المفقود .

تقاطعه سما وهي ناظرة إلى السماء:

- السماء رائعة جدًا والنجوم التي بها هي أجمل الأشياء بالحياة .

- السما جميلة في كل مكان ليس باريس فقط، ولكن لأنكِ ترينها بعين جميلة وأنت في قمة السعادة .

- أتقصد سما أنا أم السما التي فوقنا؟

يعرف أنها تمازحه ويعرف أنها تحاول أن تجاريه وتختطفه إلى معقلها ولكن حين يأتى موعد الانتظار مع من نحب يحرم علينا الحب مع غيرهم .

رد مبتسمًا:

- لن يؤثر في شيء فأنتِ تشبهين السماء،كلاكما حزين وكلاكما أجمل .

- إذن فأنت تغازلني،

أتعلم أنني منذ طفولتي وكنت أحلم أن أسير على السماء، كنت أريد أن أسير وسط النجوم وأمسكها بكلتا يدي، وأنظر إلى العالم الوضيع أسفلي، وأنظر إلى الفرق بينهما فشتان الفرق بين السماء والأرض، كم يبلغ جمال السماء وكم تبلغ وضاعة الأرض وما عليها من آثام .

تذكر يوسف حينما كان صغيرًا يتذكر تلك اللعبة التي كان يلعبها مع مريم، تلك التي يمسكان فيها يدي بعضهم وفى اليد الأخرى كل منهما ممسك مرآة ينظران إليها ويرون السماء بها، وكأنهما يسيران على السماء .

- احذري يا مريم! سنرتطم بالنجمة .

- إذن فلنقفز من فوقها حتى لا نصيبها وتحزن .

كانا يسيران في شارع الحارة مستمتعان بلعبتيهما غير أبهين بأب شيء حولهما، والناس تنظر إليهما متعجبين إلى لعبتهم تلك .
كانا يعدان النجوم في براءة وسذاجة الأطفال، حتى تعرقلت أقدامهما بأحد الأرصفة وسقطا على الأرض وانكسرت المرآتين .
وأخذا يضحكان سويًا رغم صعوبة حالهما، لكنهما وجدا الأُنس في كل ضائقة واستخلصا السعادة في كل موقف وكل نائبة .
يتذكر يومها كم الضرب الذي أخذه نظير فعلته تلك، أخذ يضحك ويبتسم حينما استرجع تلك الذكريات .
قاطعته سما:
- علام تضحك يا يوسف؟
- أتريدين أن تسيري فوق السماء؟
ضحكت وقالت:
- نعم أمشي وألعب مع النجوم .
- حسنًا تعالي معي .
استخرج من حقيبتها مرآة صغيرة:
- أمسكِ تلك المرآة وانظري بها .
أمسك هو يدها وأعطاها المرآة في يدها الأخرى وظلت تنظر إلى السماء في المرآة، وقد كانت سعيدة فرحة بتلك اللعبة التي تجعلك وسط أضواء السماء، أخذت تمسك النجوم بيدها ويوسف ينظر إلى وجهها وقد رأى كم السعادة عليها، ينظر إليها وقد تذكر أنها لن تنتظر كثيرًا في مثل تلك الحياة وأن الحياة قريبًا ستقطف وردتها الأخيرة التي تدعى سما .
ينظر إليها وقد لمعت النجوم في عينيها وأضاف القمر بعض الضوء على جبينها، لكنه امتنع عن النظر معها، امتنع أن يشارك ما قد عايشه مع حبه الأوحد امرأة أخرى، امتنع على أن يعيد الذكريات في غير موضعها .
- ما رأيك بالسماء أعلم أنها تشبهكِ؟
- أنا أحبك جدًا يا يوسف لأنك حققت أمنيتي القديمة، لطالما ظننت أنه من المستحيل تحقيقها .

ابتسم يوسف لسذاجتها تلك، ولكنه يرى الجمال في براءتها فما أطيبها وما انقاها في عالمها ذاك .
- حسنًا ألم تكتفي من السير على السماء، أريدك أن تهبطي وتسيري معي على الأرض.
وما أن أكمل حديثه حتى عانقته وهي تبكي:
-قريبًا جدًا سأصعد إلى السماء ولن أنزل مرة أخرى وسأصبح نجمة تتذكرني بها في السماء .
لم يفهم من كلامها شيئًا غير الذي يعرفه، بأنها ستودع حياتها قريبًا، لكنه لم يشأ أن يتكلم في هذا، فقد أقسم أن يواري ذلك الخبر عنها، وقد فكر أيضًا ربما هي أرادت شيئًا آخر بمقولتها تلك، ولم تقصد ذلك الشيء في نظره وتفكيره .
- لماذا تبكي الآن؟ وهل يبكي أحدٌ بباريس؟
- لكني أبكي في حضنك .
صمت ولم يجد غير اللعب في شعرها مجالًا لكي يعيدها إلى حالتها الأولى من البهجة .
وما أن أوشكت على الانتهاء أخذ يمسح دموعها بيديه وقد تلألأت الدموع بهما:
- وهل لمثل تلك العيون أن تبكي يا سما؟!
ابتسمت إليه:
- أنت مصرٌّ على مغازلتي إذن!
رفعها فوق كتفه وحملها على ظهره وأخذ يجري بها بين الناس لم يبال لأحد، ولم يفكر في شيء إلا إضافة رتوش من السعادة لها .
قالت له ضاحكة:
- ماذا تفعل أيها الأبله؟
- لن أُنزلكِ إلا إذا وعدتيني ألا تبكي مرة أخرى وأن تخرجي تلك الوساوس من تفكيرك .
- حسنًا أعدك بذلك، أنزلني إذن .
رد عليها ضاحكًا:
- لن أُنزلكِ أيضًا .
أخذت تشده من خصلات شعره وهي تضحك وتتساءل عن كم الجرأة التي أتى بها .
أخذت السماء تمطر عليهما لكي تعطيهما هي الأخرى مقدرًا من السعادة، فقد عشقا

المطر ويريا أنها رسالة السماء أتت لتعطيهما بصيصًا من الأمل .
أخذ يجري بها وسط الأمطار والجميع ينظر إليهما متعجبين وهو يتذكر تلك الرؤية حين رأى أنه يحمل مريم في باريس، ربما تألم قليلًا لفعلته تلك وبدأت علامات الحزن تغزو تفاصيل وجهه، ربما أحس بشيء من الخيانة حتى أنزل سما عن كتفيه وناما هما الاثنان على الأرض ناظرين إلى السماء وهي تلقي أمطارها عليهما .
كانت سما في قمة سعادتها في أيامها الأخيرة، أما يوسف فقد رأى في باريس حزنه الأول وعودة إلى سلسلة الذكريات القديمة وأخذ يقول في قرارة نفسه .
"سامحينى يا مريم، لم أحب ولن أعشق غيركِ، فأنتِ حبي الأول والأبدي" .
قد عشق الإخلاص في الحب، يرى أن الموت هو البديل الأوحد له، يرى أن الحب دائم حتى ولو طوى أطرافه وتلاشت قلوبهما، فالحب باق أبد الدهر، وما لشيء في هذا العلم يستحق الحياة غير الحب فالحب هو الحياة والموت أيضًا هو الحب .

"أقفال الحب"

أكره الابتذال في الحب أرى أن الحب أقرب إلى كونه رابط مقدس بين أطرافه هو كالشمس هادئة أحيانًا، لكنها حين تحتد تقسو وتؤذي، هكذا الحب حين يحتد ويزداد فرطه فيفرط عقده ويصبح أشبه بالابتذال .

أما حقيقة الحب في كونها خالية من التزييف والتيه ومليئة بشيء من العلن المفضوح، لا بفرط الحب ولكن لأن الحب في أساسه مجبر على الخروج بتفاصيله على مظاهر العشاق .

أجد في كلمة "أحبك" ابتذالًا صريحًا لكل معاني الحب، فالحب يخلو من الإفصاح، الحب وحده يفصح بالنظرات، الحب كتمان الشعور حتى تمتلئ به القلوب فيطفو على ملامحنا ويظهر حتى نغرق في شلالاته .

الابتذال في الحب قد يخفي من الحب طابعه الفريد وأيقونته المميزة في كونه شيئًا خاصًا محفوظ في خبايا الشعور بعيدًا عن أعين الغرباء .

أرى الحب كالسر الذي حين يخرج بين طرفاه ويفشي سره فإنه يطفئ من رونقه الكثير من اللمعان والحياة .

فلا تبتزلوا الحب .

جالس في مركب نهري فائض بنغمات الحب وسط بهو النهر الباريسي العظيم نهر السين أو كما يطلق عليه نهر العشاق .

يلتقي الوجهان في ساحة الحب ويتقابلان على سرر متقابلة، يجدف المركب الصغير في ذلك النهر العظيم .

وحدهما يوسف ومريم يجدفان في ذلك النهر والسماء قد أعطتهما طابعها النهاري الفريد وأشعتها المزينة المضيئة .

يخرج يوسف من وراء ظهره باقة من الورود البنفسجية، تلك الورود التي تعشقها، وتمنت مرارًا أن يهديها إياها يوسف، وقد كان بوسعها أن تجلبها بنفسها ولكن لمثل تلك الهدايا طابع فريد حين تعطى من أحبائنا .

تنظر إليه مريم وقد امتلأت عيناها بكافة أشعة الحب الموجودة بالعالم، نظرت إليه بعين فرحة ودون أن تنطق كلمة واحدة فغالبًا الأحلام يصعب بها الكلام لا شيء غير النظرات تغزو عالم الأحلام .

يتذكر يوسف ذلك المشهد من حلم الليلة الماضية، يحاول بقدر المستطاع أن يتذكر ملامحها، ولكن عقله قد أعطاه قدرًا كافيًا من البؤس الذي يمنعه من تذكر وجه حبيبته مريم .

فهو يتذكر تفاصيل حلمه إلا وجهها وقد احتفظ به القدر لذاته ولسبب لا يعلمه .

يقف على أحد الجسور المارة على نهر السين بالعاصمة الفرنسية باريس تجاوره سما تلك التي تُدعى بمفقودة الحب .

فحين تعشق وتتعلق ثم تتشبث فتتجزأ بكونك جزء ممن تحب، هكذا قد وصل الحال بسما التي انتهى بها إلى حب من طرف واحد بل حب من قهر واحد وحينئذ تُدعى بمفقودة الحب .

تنظر إليه وتسبح في عينيه وتسمع تناغم دقات قلبها المتزامن مع النظر في أعماق عينيه .

ويوسف الآخر لا يأبه ما زال متأملًا غياهب النهر ذلك الذي استضاف حلمه ليلة أمس، ينظر إليه لعله يتفاجأ بإحدى المراكب التي تركبها مريم وتظهر إليه، لكنه يتسأل في نفسه هل لو خرجت عليه مريم الآن هل سيصبح قادرًا على تذكر ملامحها؟ فلربما مرت عليه في تلك المدينة آلاف المرات ونظرت إليه آلاف النظرات لكنه عاجز عن التعرف عليها .

لكنه وقد آمن أنه يكفي على أحدهما تذكر الآخر، فهو يؤمن لو أن مريم وجدته ستخبره بكونها مريم، وستذكره بحبها القديم له، يؤمن أنها لن تبخل عليه بمثل ذلك الموقف، ويؤمن أنها ستسامح وتنسى مآسي الماضي من أجل ذلك اللقاء الذي غاب موعده، لكنه يؤمن بموعد اللقاء وأن كان إيمان تعلوه درجات الشك، فهو في حيرة من التعرف على أمره والتعرف على ذاته .

ظل صامتًا للحظات وهو يفكر في أيامه ويحصي لياليه، وما قد أنجزه منذ أن أفاق في غيبوبته وما سوف يجده بعد ذلك في المستقبل القريب، يتساءل لما لم يسأل عنه أحد؟ أين الجميع؟ يؤمن أنه كان يملك أصدقاء وأن كان لا يذكر أيًا منهم، يؤمن

أنه كان يمتلك قدرًا من الحياة وبه قدر كافٍ من السعادة الحياتية المطلوبة والتي يفتقدها الآن .
تنظر إليه سما وتمسك يده لعلها تخفف عنه أعباءه ولا تدري أن لمسة اليد تلك قد تزيده أوجاعًا وتزيده من البؤس والشقاء .
- ما بك يا يوسف، فيم تفكر؟
- لماذا أنا موجود؟
هل من المفترض أن أكون موجود في الحياة؟ أنا لا أعلم أرضي ولا أعلم شيئًا عن نفسي حتى حبيبتي لا أعلم هل هي على قيد الحياة أم أنها في ركاب الغائبين؟ من أكون من الأساس؟ أنا لست متأكد بكوني يوسف .
- لا ترهق نفسك، لقد سألت نفسي مثل تلك الأسئلة كثيرًا جدًا قبل أن أجدك، لكنني الآن وقد شعرت أنه لا داعِ للتفكير في مثل تلك الحماقات .
- حماقات؟!
- نعم، حماقات وماذا ستستفيد من التفكير؟ ما حدث قد حدث ولا يمكن تغير القدر هل تنتحر لتتخلص من وساوسك وتصبح جبانًا وهاربًا من واقع قد هزمك ومزقك أم ستحيا مكتئبًا حزينًا وتعيش في دور الموتى .
ينظر إليها ويعلم أنها في رحمة مما هو فيه، فقريبًا سوف تغادر الحياة، بل ستغادر الموت وتذهب إلى الحياة، فهو يرى أن الحياة التي هما فيها أشبه بالموت بل أشبه بالظلام .
هل دومًا يرتبط الحب بالوجع أم أن الحب الخالي من الوجع لا يصبح حبًا من الأساس، فقد يصبح شيئًا عاديًا بلا اختبارات لضمان الحب ولضمان التضحية والبقاء .
فالحب الذي يخلو من العقبات ليس حبًا ولا يوجد تعريف يخص ذلك الشيء سوى أنه فترة زمنية صعبة الحدوث فلا ألم بلا حب ولا حب بلا ألم .
- أنا لا يعني لي نفسي أبدًا يا سما، لا يعني لي سوى مريم هل تعلمين أنها الفتاة التي عشقتها منذ طفولتي وكبرت معها وتعلق قلبي بها ومن ثم لا أعلم عنها شيئًا الآن، وفجأة تختفي من حياتي ولا أتذكر عنها شيئًا وكأن شيئًا لم يكن .
أي شيء بتلك الحياة يهون إلا الحب لأنه يجلب الوجع ووجع الحب بلا دواء .
انظري إلى أقفال الحب المعلقة تلك على الجسر كل حبيبين وقد اتفقا أن يربطا

قفلهما هنا ويكتبا اسمهما عليه، وبذلك لا يصبح للفراق مكان بينهما، لكن حقيقة الواقع أنهما سيفترقان لأنه لا يوجد حب بلا فراق في هذا الواقع وأيضًا لا يوجد حب بلا رجوع .

ظهر على وجهها الحزن بذكره مريم، ولربما حزن مصطحب بالغيرة، تتمنى لو أنها كانت مريم، تتمنى لو أنها من يعشقها وتتمنى لو بادلها نفس الشعور .

- من الممكن أن تكون تلك الأقفال مجرد ذكرى لهم، فحين يأتوا مرة أخرى يتذكروا حبهم ويتذكروا قصتهم في ذلك المكان، ولكن عقبات العشاق دائمًا ما تكون بلا نظر ولا ترى شيئًا ودائمًا الغيرة تقتل أي ذكرى وتُنسي أي موقف جميل .

- أتعلمين أنني قد حلمت البارحة بمريم وقد عقدنا قفلنا هنا على الجسر كي لا نفترق وكتبنا عليه اسمنا وألقينا المفتاح بالماء،

مشكلتي أنني نادرًا ما أحلم لكن إذا حلمت فعهد عليه أن يتحقق، وحلمي لم يكذب أبدًا،

ولكن انظري أين أنا من مريم الآن وقد أبعدنا الفراق سنين كثيرة، أعرفتي أن كل ذلك كذب وهراء؟

تركها وسار بضع خطوات إلى الأمام كي يخفي بعضًا من غضبه وانشغال القدر في مواجهته فقط دونًا عن العالم بأسره، أخذ ينظر إلى الأقفال ينظر في كل قفل وما تخفيه من قصص الفراق خلفه يبحث عن قفلهما الذي عقده ليلة أمس في منامه وفى صحبة الحب القديم .

حتى انتفض في نفسه انتفاضة القتل وتفاجأ لوهلة كادت أن تطيح به حين وجد القفل مربوط على أحد نواحي الجسر، اقترب وأمسكه بيده ووجد حروف اسميهما، هو بالتأكيد ذلك القفل الذي وجده في المنام الليلة السابقه، ربما زاده قلقًا بقدر ما زاده أملًا وإيمانًا بالعودة واللقاء ولكنه فضل أن يخفي ذلك عن سما لا يريد لها الحزن فيما قد انتظرها من أيام معدودات .

لا يريد لها المزيد من اليأس ولربما كل ذلك تخيلات لا شيء أكثر من الخيال في فترته تلك، لكنه فضل أن يعيد النظر إليه وأخذ يتحسسه ويلمس أجزاءه أراد أن يخرج وساوس الشك من عقله، كل شيء أمامه ولكن لم يجد الجواب لذلك الموقف الذي لم يستطع عقله تفسيره ولم تسطع أي من حقائق العقل أن تدرك خبايا هذا القفل

على ذلك الجسر الملقب بجسر العشاق .
تقبل عليه سما مبتسمة وقد ملأ الخجل كل أجزائها وكل ذرة من خلاياها قد تشبعت بالحب الخالص النقي .
تقبل عليه وهي تواري خلف ظهرها باقة من الورود البنفسجية، تلك الورود التي قد كان ليوسف عنها ذكريات وذكريات، ربما أراد القدر أن يحول سذاجة الأمر لشيء من القسوة واسترجاع الذكريات .
ينظر إليها بشيء من الحماس ينتظر ذلك الشيء المستتر خلف ظهرها، ينظر وإذا به وقد صعقته الآلام ينظر لها وقد شعر بالاحتقار لنفسه تمنى لو أنه ميت في مثل ذلك الموقف .
ينظر لها بعين مبتسمة دامعة بعض الشيء:
- ورود بنفسجية أتحبينها؟
يراها وقد امتلأ وجهها بلون الخجل الأحمر .
- أحبه مثلما أحبك يا يوسف .
نطقتها وقد قتلته هي الأخرى، لكنه لم يكن أنانيًا في تلك اللحظة لم يرد أن يكون قاسيًا تجاه الفتاة التي أهدته حياته الجديدة، هو يؤمن بوعوده القديمة مع مريم، ولكن لم يتبق لسما الكثير لتتألم ولم يتبق لها الكثير لتعشق وأيضًا لم يتبق لها الكثير لتحيا .
ينظر لها وقد تعثر لسانه عن الحديث يقبل عليها ويفتح ذراعيه كأنه يفتح لها العالم من شرقه لغربه وكأنه يهديها هو الآخر نفسًا جديدًا في الحياة، يحتضنها ولربما هي المرة الأولى التي يحتضنها وهو مؤمن بفعلته .
يحتضنها وهو مؤمن بكل معاني الحب ولحظات الحياة .
يقول لها في أذنها في ذلك الموقف الذي أحياها مرة أخرى:
- وأنا أيضًا .
قالها ولكنه ظل متمسكًا بعهده القديم، فهو يحب سما لكنه لم ينس مريم، قالها وقد اشتبكت مئات الأحاسيس ما بين الحب والشك والتعاطف والألم .
ولربما كان للألم النصيب الأكبر في موقفه ذاك .
- لقد أبدلت حياتي، قلبتها رأسًا على عقب يا يوسف .

أو أنك أعطيتني أملًا جديدًا في الحياة، لقد كنت شبه ميتة، أنا حينما أنظر في يدي وأرى اسمك اسمع كل شيء في الحياة يقول لي أكملي الحياة ولا تيأسي، أشعر أن اسمك معي كروح تحييني وتدفعني في الحياة . شكرًا يا يوسف .

لم يكن وجوده على ذلك الجسر إلا لاسترجاع تفاصيل حلمه السابق، وأيضًا أعطاه الجسر أملًا جديدًا وحبًا جديدًا ووعدًا قديمًا .

لم ينس مريم بل لن ينسى مريم، أراد أن يذكرها أنه ما زال لها، أراد أن يعطيها شيئًا من سعادته التي حلت على أطيافه في باريس .

لم يستطع أن يغادر المكان حتى ألقى بزهرة من تلك الزهور في ذلك المكان أسفله حيث التقى بمريم في ذلك النهر .

ألقى الزهرة مبتسمًا وكأنه يهديها إليها، ظلت تسير مع موجات المياه الهادئة طافية تتراقص وكأنها تعرف مقصدها إلى مريم، ظل يتابعها لوهلات وكأنه مؤمن أنها ستصل إليها عما قريب .

. . . .

صباح يوم جديد يعرض إطلالته الهادئة الجميلة، يجلس يوسف على إحدى. . الطاولات في بهو الفندق المقيم به في باريس، يحتسي قهوته الصباحية مرتديًا سماعته يستمع إلى فيروز .

لم يكن يتخيل قط أن تكتمل ثلاثيته تلك، القهوة، وفيروز، وباريس، لم يتصور أن تكتمل وأن يصبح أحد المشاركين في تلك الثلاثية الجميلة التي انتقصها شيء من مريم .

ربما مريم وحدها قد تجعله أسعد السائرين على درب الأرض في تلك اللحظة .

ينظر إلى الفرنسيين حوله يحاول أن يفك ذلك اللغز المرتبط بهم لماذا دائمًا يرتبط الحب بهم .

يرى أن تلك النظرية جائرة في كونها تربط الحب بطائفة من الناس وبحدود مدينة واحدة وهي مدينة باريس .

يرى أن الحب ليس حكرًا على أحد بل الحب هو أحد أشكال الحرية المنتقصة على كوكبنا .

يمسك القلم الموضوع على الطاولة ذلك الذي يتم وضعه لتقييم الخدمة في المطاعم

وغيرها من الفنادق .
أخذ يرسم اسم مريم على تلك الورقة وأخذ يزخرف ملامحه ويزين أطرافه، ثم أسرع إلى طيها وإخفائها بعد أن رأى سما هشة ومبتهجة إليه، وقد كانت تجري بخطوات مسرعة متشوقة .
يراها يوسف وقد ظهر عليها جمالٌ كجمال باريس، لم يكن كجمالها المعتاد والذى قد كان لابتسامتها إعطاء المزيد من الأناقة إلى وجهها .
أقبلت إليه قائلة:
- صباح الخير .
صباح النور .
- تناولت فطورك أم لا؟
- لا لقد احتسيت كوب قهوة وانتظرتك لنفطر سويًا .
- إذن فلتحضر لنا فطور على ذوقك .
- لا يصح ذلك تفضلي أنت .
ينظر كل منهما إلى الآخر مبتسمًا وهما يعلمان أن سبب تعازمهما على بعضهما ليس إلا لعجزهما عن الاختيار من قائمة الطعام التي يجهلان محتوياتها وربما لعدم استطاعتهما قراءة الفرنسية .
ينظر كل منهما إلى الآخر مبتسمًا وينطقان في نفس اللحظة:
- لا أعلم شيئًا .
- لا أعلم شيئًا .
يضحكان وقد انكشف أمرهما وأخذا ينظران وقد غرقا في دوامات الضحك حتى قاطعهما الجرسون .
- يوسف؟
وقع هذا النداء عليه وقعة أودت بحياته إلى ما وراء الموت، يعلم أنه مذ أفاق من غيبوبته ولم يعرف أحد ولم يتعرف عليه كائنًا من كان .
يوقن أنه في ركاب التائهين الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ولا يدركون شيئًا عن هويتهم وعن أحلامهم .
ينظر إليه متفحصًا في كل قطعة من جسده، ينظر إليه وكأنه يتشبث بجملته الأخيرة،

ينظر إليه وقد ازداد ضغط الدم في عروقه وكل شيء أصبح أقرب إلى لحظته التي طال انتظارها .
يقول له بصوت متهدج منكسر صوت ملأه الشوق والتشبث والاحتواء:
- هل تعرفني؟
- وكيف أنساك يا يوسف! وماذا عن مقاهي مصر القديمة التي سهرنا إلى الفجر لنكتب الشعر بها! أنا محمد جلال، كيف نسيتني؟
هب يوسف بالوقوف وأخذ ينظر في عينيه أخذ يحملق ويستعيد الذكريات، أخذ ينظر بنظرة الطفل المتلهف إلى أمه في مشهد اللقاء الذي غاب منذ سنين عديدة وليالي أنس مديدة .
وفجأة يتذكر يوسف بعض المشاهد القديمة حين كان يجاوره على إحدى المقاهي ومن ثم استعاد ذكرياته معه في لحظات لم تتعد بضع الثواني .
وفجأة وبلا سابق إنذار احتضنه يوسف وأخذ يمسك دموعه تلك التي أحبت الخروج كثيرًا منذ أن أصبح وحيدًا .
أخذ ينظر إليه مبتسمًا وكأنه طائر من الفرحة بل بالفعل قد كان طائرًا من الفرحة .
- محمد جلال إبراهيم السيد فرغلي ابن الحاج فرغلي بائع الفراخ وصاحب أشهر دواوين في مصر والتي باعها بملاليم كي يعيش،
قهوة مصر القديمة والسيدة زينب وقهوة سيدنا الحسين،
أما زلت على قيد الحياة ألم يدهسك الدهر بعد؟
ضحك محمد وقال له:
- والله لقد دهسني الدهر منذ قليل ومن للدهر غيرنا كي يدهسه يا يوسف، منذ أن هربت من مصر عن طريق الهجرة غير الشرعية وأنا ممزق ها هنا وأُقلب رزقي من مكان إلى آخر بدون جواز سفر أو أي هوية، واليوم أخبرني أحد الأصدقاء بأن السفارة قد علمت بأمري وعرفت مكاني وسوف يقوموا بترحيلي كي أُكمل رحلة التمزيق والدهس في مصر موطني الأول، وهل يفرق التمزيق هنا أو هناك يا يوسف في كلا الحالين نحن مغتربون وربما الصحبة الحلوة هناك هي من تنسينا هم الغربة في مصر .
- لا كيف تُرحل اليوم، أنا لا أصدق رؤيتك حتى الآن، سوف تنتظرني يا فرغلي

سنحكي في الليل العديد من الأشياء، فأنت لا تعلم ماذا حدث لي، فأنا في أمس الحاجة إليك أرجوك .
- ماذا حدث لك؟ أتمنى ألا يكون قد هزمك الدهر .
ضحك يوسف بشدة:
- هزمني فقط لقد قهرني لدرجة أنني لا أعلم ماذا حدث لي ولا أتذكر شيئًا عن نفسي ونسيت كل شيء في الحياة، الموضوع كبير جدًا يا عم فرغلي إني في أمس الحاجة لك، أنت في مثابة ذاكرتي القديمة، إياك أن تتركني الآن .
- حسنًا فقد تبقى لي قليلًا من الوقت، فقد أخبرني صديقي أنني سأُرحل في الغد، أسرع أنت فقط اليوم فقد حستهم طيبة قلوبهم أن يتركوني يومًا كي أكسب فيه واسترزق والله إننا أموات يا يوسف لا شيء غير أموات،
لم تخبرني بعد كيف أتيت هنا أسائحٌ أنت؟
هل أصبحت غنيًا أم أنك ورثت المال؟
ضحك له يوسف وكأنه يستعيد لحظات الضحك القديمة التي افتقدها:
- نسيت أن أعرفك بسما .
- أهلًا وسهلًا يا مدام سما .
- أهلًا بحضرتك .
- حضرتي؟ قل لزوجتك شيئًا يا عم يوسف ألا تعرفنا أم ماذا؟!
ابتسم له يوسف .
- لا سما تكون صديقتي .
سوف أخبرك بكل شيء في المساء، أهم شيء الآن أن تجلب لنا فطور نعرفه، لأننا لا نفهم شيئًا من كل هذا .
كان لإيجاد صديقه محمد كإحساس الغريق حين ينجو، والتائه حين يصل شاطئه، كان يشعر وكأن الدنيا قد أعطته أملًا جديدًا في الحياة وكأنها تعطيه قبلة النجاة .
أخذ يفطر مع سما وقد رأت الفرحة الكاملة على وجهه فأخذت تسترق النظرات وهي فرحة له، فالمتعة الحقيقية هي السعادة لسعادة من نحب والحزن لحزن من نحب، أما أشخاصنا فلا تمثل لذواتنا أي أهمية على حساب أحبائنا .
انتهيا من فطارهما، ثم اصطحبته سما للتنزه في باريس لكي يتشبعا بذلك الهواء

الرومانسي الجميل وأخذته للتزلج على الجليد .
لم يكن يوسف ذلك الرجل الكتوم الذي يستطيع أن يكتم المشاعر .
فالمشاعر لا تُكتم، المشاعر خلقت لتفوح وخلقت لتفضح فلا الحزن يُكتم ولا الشوق يُكتم وأيضًا السعادة .
يظهر عليه السعادة ويوافق سما في كل ما تريد؛ يريد لها السعادة هو الآخر .
يرى حلمه على بعد خطوات من الآن، يرى كل شيء أمامه وقد فتحت أبوابه ربما قريبا جدًا سيذكر مريم، بل سيذكر ملامحها المنسية لأنه لم ينس شخصها ولم ينكر حبها أبدًا .
استحوذ تفكيره الآن على فكرة تذكرها وربما فكرة لقاءها الذي قد أصبح أمر قريب وبينه وبين مشارف أحلامه بضع ساعات من الآن .
يرتدي كل منهما حذاء التزلج تبتسم له وتقول: "أحبك جدًا يا يوسف" .
ينظر لها وقد أخذ يتحسس خصلاتها: "وأنا أيضًا أحبك يا سما" .
ثم أمسك يدها وأخذا يتزلجان على الجليد في هدوء وهما في غاية سعادتهما، هو سعيد لأسبابه وهي فرحة لفرحه وسعيدة لسعادة حبيبها .
ينظر كل منهما إلى الآخر وأخذا يضحكان وكأنهما يعلمان أنهما غير قادرين على التزلج في ذلك البهو الثلجي الكبير .
يضحكان ويسقطان ثم يقومان هذا كل ما يحدث لهما، وهما ينظران إلى العشاق حولهما وهما يتبختران ويزينان ذكرياتهما بتلك الأحداث العظيمة في نظر العاشقين .
يسقطان مرة ثانية على الجليد وهو ممسك يدها ينظر إليها مبتسمًا:
- نحن غير قادرين على التزلج .
- لا تقل ذلك ما زال بوسعنا أن نفعلها .
أخذا يضحكان ولا شيء غير الضحك يسيطر عليهما، حيث يجلسان على الأرض مستندين على إحدى الهضبات الثلجية وكل منهما يرتدي قفازه وكوفيته وجاكت صوفي ثقيل، وأخذا ينظران إلى العشاق وهم يطوفون حولهما وكأنهما الشمس والقمر جالسان والجميع يطوف حولهما .
تمسح سما الثلج من يديها ليظهر اسم يوسف على يدها ثم تقول بلا سابق كلام .
- دائمًا ما تكون الأوقات السعيدة محدودة ودائمًا لا نستطيع أن نحصي سوى الأوقات

والمواقف السعيدة لندرتها في حياتنا .
- ومن الممكن لأنها لا تُنسى ومن منا يتذكر الأوقات الحزينة، فحتى الذاكرة تنساها مع الأيام وتلك حكمة الله ورحمته بنا، وإلا لأصبح كل الناس موتى من القهر .
- ومن أخبرك أنني أنسى المواقف الحزينة .
ينظر إليها متعجبًا وهو يعلم أنها تنسى جميع الأحداث وتنسى الذكريات، ويعلم أن مرضها هو السبب في ذلك:
- ليس من المفترض لأن مرضي قد أجبرني على النسيان أن أطيعه وأنسى والدليل أنني لم أنسك بعد، لكن حقيقة الأمر أنه إذا أراد الإنسان شيئًا ليذكره سينحته على الحوائط والشوارع، وحتى عقله وسوف يصنع المستحيل لكي لا ينساه، مثل اسمك تمامًا فأنا لم أكتبه على يدي فقط بل في عقلي ومداركي .
- معك حق، وذلك لأن الإنسان لا يتخيل أنه سينسى ولم يضع ذلك الاحتمال في حياته ويترك أحداثه سواء حزينة أو سعيدة يتركها تمر مرور الكرام دون أن يؤيده بذاكرته، فتذهب بعد ذلك بلا أدنى فائدة،
مثلا أنت سوف تنسيني في يوم من الأيام .
- لا يا يوسف من المستحيل أن أنساك!
نظر إليها وقد طعنه كل شيء إلا النسيان، يعلم أنه سيأتى اليوم الذي لن يكون بمقدور عقلها أن يتذكره، يعلم أن العجز سيكون قادرًا على تذكرها له ويعلم أن النسيان سيصبح هو القهر الأكبر لها، ولكنه مطمئن لسبب واحد أنها حين تنسى سوف تنسى ذلك الموقف، وحينها لن يسبب ذلك لها أي ألم بل سيسبب له هو وحيده منتهى الألم، لأنه ما زال في ركاب المتذكرين .
وحينها يصبح العقل المتذكر مصدر الألم ويصبح المتعافون من النسيان هم المصابين الأصليين في تلك القصة الحزينة .
فالنسيان لا يؤذي إلا المتذكرين .
يمد لها يده لكي يكملا تزلجهما العجيب المبهج ذاك، لكن ثمة شيء غريب قد يحول بينهما وبين السعادة ثمة شيء قد يعطيه شيئًا من القهر أو شيئًا من الموت الحتمي المفاجئ .
لم تستطع سما النهوض تشعر وكأن الشلل قد أصاب كل دقيقة وكل خلية من خلايا

قدميها لا تستطيع التحليق ولا تقدر على الطيران .
أصبحت كذلك العصفور الحر الذي أصبحت حريته حبسًا له حين فقد قدرته على التحليق، وكأنه أصبح حرًا بلا حرية وسجينًا بلا سجن .
يرى العالم حوله وقد انطفأت معالمه وهدأت أضواؤه، وكأن العشاق قد ارتحلوا لثكناتهم وأصبح الآن وحيدًا عاجزًا ضعيفًا .
غير قادر على التركيز أو الحديث لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة، ينظر إليها وهي ساقطة على الأرض كذلك الطائر الجريح، يساعدها دون أن ينطق بحرف وكأن النظرات في ذلك الموقف تكفي لحل كل شيء، وهو يسمع أصداء الأصوات من حوله تخيفه وتزيده رعبًا، لم يجد غير الاقتراب منها واحتضانها حلًا وحيدًا في مثل ذلك الموقف .
وفى الحال وقد أخذها إلى مسشفى فرنسية قريبة، وظل واقفًا خارج الغرفة منتظرًا الطبيب بالخارج ومعه ممرضتها والسائق الخاص بهما .
ينتظر وقد أصابه الخوف الشديد، هل حان وقت وداعها هي الأخرى أم أن للقدر رأيٌ آخر ومصير حتمي لا يعلمه .
حتى خرج الطبيب من غرفته وأخذ يتحدث بلغته كلامًا لا يفهمه، ربما استطاعت الممرضة التعرف على المصطلحات المرضية فقط، وهو قد كان حائرًا وأخذ يقول لها: "ماذا يقول؟ ماذا حل بسما؟" أشارت بأصبعها بإشارة الهدوء والتريث وهي في قمة تركيزها مع الطبيب، وكأن كل لحظة زادته قلقًا فوق قلقه وزادته ألمًا غير متناه حتى انتهى الطبيب من الحديث وذهب .
وقالت له الممرضة:
- سما عندها مرض مزمن بالمخ وهو السبب في فقدانها لذاكرتها المستمر، وذلك لأن مخها يضمر ببطء، ولكن في تلك المرة تأثرت قدماها ولن تقدر أن تسير عليها مرة أخرى، وأيامها بالحياة محدودة،
محدودة جدًا .
كانت تتحدث وما أن قالت جملتها الأخيرة امتنع عقله عن استقبال أي كلمة وقد أصابه الذهول وكأنه يخرج أنفاسه الأخيرة في الحياة .
أخذ جانبًا من أحد جانبي الممر ممسكًا في العمود وقد كان غير قادر على الحركة

وغير قادر على التفكير، لا شيء غير سما الآن قد ملأ تفكيره ولا شيء غيرها قد استحوذ على مدارك عقله .
أخذ ينظر إلى السماء من نافذة المشفى مطرقًا رأسه وقد استحوذ الحزن على خلاياه وأخذ ينزل بعض الدموع التي لم تشف ولم تغن من جوع فلم يزيده الدمع غير قهر .
ينظر إلى السماء وينظر إلى نجم الشمال يريد أن يهتدي كما أخبرته سما من قبل، لكنه لم يستطع لم يقدر على إيجاده فقد أصبح عاجزًا أيضًا عن تحقيق تلك الأمنيات الصغيرة .
وهل العجز أيضًا قد يكون في أصغر الأمنيات حينها لا يصبح عجزًا ولا قهرًا، وحينها لا تستطيع أن تحمل أعباءك على القدر لأنك بالفعل قد فقدت الحياة وأصبحت ميت وأن كنت تتنفس .
يرى أن الدهر قد دهسه بأقداره الجائرة، ويا حسرة عليك إذا مزقك الدهر،
فالدهر لا يعرف الانتظار حين يأتي بنوائبه، فما عليك غير أن تغمض كلتا عينيك وتبتسم فلربما أدركت السعادة التي كنت تبحث عنها في لحظات الوداع .
يبتسم يوسف وقد آمن بنهج العشق إيمانًا أعمى، وقد تيقن أن العشق لا يعلم النسيان بل العشق ينسى النسيان وما فائدة العشق حين ننسى وما فائدة النسيان حين نعشق، فقد أخذ يفكر بتلك النظرية المميتة القاتلة هو ينسى الكون ولا يعرف غير سما وسما قريبًا جدًا ستنسى الكون بأكمله حتى يوسف، سوف تتوارى ذكراه من مداركها ومن جدران عقلها .

إن القهر الحقيقي حين نتذكر من ينسانا أما أولئك الذين يفتقدون ذكرانا فهم في غاية الراحة بعيدًا عن موجات الوجع التي يلقاها المتذكرون الذين يسكنون على رؤى الأطلال .
يدخل يوسف غرفتها يراها كالملاك الأبيض بوجهها المنير الذي قد التمس كافة تفاصيله بداخله وقد كانت جالسة على كرسي متحرك، ذلك الكرسي الذي لن يفارق حياتها إلا عند مماتها، فقد أصبح أمر سيرها على قدمها ذكرى منتهية، وقد أصبح أمر التزلج والجري في وسط الأمطار فعلًا ماضيًا مبني على الوجع المميت .
ينظر إليها منكسرًا مزهولًا وهو في حالة من الإنكار لفعل القدر، يريد الانسحاب

من تلك الحياة وأصبحت كاللعبة القاسية وكالمغامرة المؤلمة لا يريد المزيد من الألم الذي عاشه في حياته .

يريد مزيدًا من السلام مزيدًا من السلام فقط .

ينظر إليها بنظرة الماضي والحاضر وقد اجتمعا في حضرتها، يتذكر لحظات انطلاقها كعصفور طليق وها هي الآن وقد خذلها القدر وأعطاها اختبارًا لم يكن يريده لها، تمنى لو كان هو مكانها، تمنى لو أعطاها عقله بل تمنى لو أعطاها روحه كلها .

تحرك بضع خطوات إليها وكانت كل خطوة تنفذ في مئات الأعوام، تحرك وقد تثاقلت قدماه وهمدت كل أجزاءه .

أقبل إليها وأمسك رأسها وقبلها وقد تساقطت بعض الدموع التي زادته وجعًا كسابقتها .

- أنا آسف يا سما،

ربما أنني كنت قد قسوت عليكِ في علاقتي بكِ، ربما أنني كنت شخصًا أنانيًا وقتلتك أكثر من مرة ولم أقدر حبكِ، لكن في تلك اللحظة أريد أن أعترف لك أنني أحبك، وقد تأكدت من مشاعري تجاهكِ ولا أقدر على الحياة دونكِ، أنا لا أعلم أحد غيركِ صدقيني فأنتِ ذاكرتي وعقلي وكل شيء في حياتي أرجوكِ سامحيني .

نظرت إليه سما نظرة فقدان وعجز نظرت إليه وقد استسلمت ملامحها إلى حالة من الذهول واللا مبالاة، نظرت إليه متعجبة وقد اندهشت من كلامه ومن أفعاله .

- هل تعرفني؟

نظر إليها وقد قهر حتمًا وما أدراك بقهر الرجال، وقد شعر يوسف حقًا وكأن الموت لاحقه فعلًا .

نظر إليها مبتسمًا مازحًا وهو يحاول أن ينكر كل تلك الحقائق التي ينكرها عقله، ولا يقدر على استيعابها ولا على تصديقها .

- كفاكِ مزاحًا يا سما لا تصيبيني بالذعر أكثر من ذلك، هيا لأنني قد حضرت لكِ مفاجأة ستعجبكِ .

نظرت إليه في ذهول:

- سما؟ هل هذا اسمي؟

أمسك يدها وفتحها وأخذ يريها اسمه المنحوت عليها .

- أنا يوسف يا سما .
أخذت تتمتم بكلام لا يفهمه وكأنها عاجزة عن النطق ببعض الحروف وقد أثر عقلها على مصادر النطق عندها .
أخذ ينظر إليها وهي تتحدث وهو يبكي وقد جلس على الأرض وظل ينكر ذلك المشهد يرى أنها تمازحه .
أخذ يجري خارج الغرفة إلى الطبيب حتى قابلته ممرضتها الخاصة .
- لن تتذكرك يا يوسف .
وما أنا نطقت بتلك الجملة حتى عم الصمت على مسامعه، وعم الهدوء الداخلي المنتفض في مشاعره، وكأنه في حلم لن يستيقظ منه قط .
أخذ يضرب برأسه على الحائط ليتأكد أنه في حقيقة وواقع ملموس أمامه حتى شعر بالألم .
فالألم دائمًا يرتبط بالواقع ويرتبط بالحياة فلا ألم في الأحلام لا ألم إلا في بؤرة المشاعر .
يراها وهي تمر من أمامه وقد أخذها السائق وأخذ يدفع كرسيها المتحرك، وأخذ ينظر إلى وجهها وإلى تفاصيلها ويبتسم، لكنها لم تبادله الابتسامة لم تبادله شيئًا قط غير النسيان .
يتذكر قولها حين أخبرته: "مستحيل أن أنساك يا يوسف" .
يتذكر تلك الجملة التي مرت على ذاكرته في ذلك الموقف الذي قتله يقول في نفسه وهو يتمتم: "لماذا أخلفتِ وعدك يا سما لماذا نسيتيني؟"
وما العجز في نظرنا؟ فالعجز في بناء المشاعر هو الأساس والنسيان هو قمة العجز واليأس فلا عودة للوراء ولا أملًا في الأمام .
يرى أن النسيان قد خلق لنرتاح، لكنه لم يذق طعم الراحة من النسيان فما وجد منه سوى الألم .
يتساءل في نفسه بعض الأسئلة التي حيرته، لماذا أنا في هذه الحياة الكئيبة؟ لماذا يلاحقني القدر؟ أم أنني خلقت من منبع الألم؟
يرى أنه الآن أصبح وحيدًا كسابق عهده، فهو لم يخلق إلا وحيدًا ربما استأنس أحيانًا بعض الحب الذي لم يفارقه لكنه أيضًا لم يحصل على مبتغاه من الحب .
فدائمًا ما بحث عن الحب، لكنه لم يجد أطيافه ولم ير إلا ظلاله السوداء .

نسي كل شيء حتى صديقه فرغلي، قد نسي موعدهما فسما قد سلبت منه روحه وأنهت كل شيء في حياته القادمة .

وصلوا إلى الفندق وقد حضَّر السائق متطلبات العودة إلى مصر، وقد أخبر يوسف الممرضة بأن تأخذ سما إلى غرفتها وألا تفارقها .

وذهب ليبحث عن صديقه حتى أخبره أحد العمال في الفندق بأنه قد ذهب وترك له ذلك الجواب .

علم يوسف حينها أنه قد انتهى وقته في باريس وأنهم سلبوا منه ما قد تبقى من أحلام .

فتح يوسف الخطاب وأخذ يرى تلك الكلمات التي لم تكتب بخط جيد وكان خطه غير واضح المعالم وقد علم أنه أسرع في كتابتها فلم يكن لديه وقت لكي يعطي ذكرياته قليلًا من الثواني التي ستسجل في ملفات الماضي وأنهم أسرعوا في سلب أحلامه وأخذ يقرأ بصوت ضعيف منكسر .

" صديقى يوسف،

لقد تأخرت كثيرًا وأنت تعلم أن هؤلاء المفسدين لا ينتظرون الأحلام ولا يرحمون الضعفاء أمثالنا وكأننا مصدر الحزن في هذا العالم، أردت أن أعرف قصتك، ولكني قد قرأت لهفتك على وحزنك في عينيك وقد أوشك على الفياض وأني قد لاحظت أنك قد نسيتني وأشك في أنك قد نسيت الكثير من الأشياء في حياتنا القديمة .

والآن وقد دهسني الدهر مرة أخرى يا يوسف، وما لنا غير الدهر ليدهسنا نحن معشر الضعفاء،

أكتب إليك ولا أعرف ماذا سيحدث لي، ولا أعلم موضعي الآن، ربما السجن وربما القبر ولكنني أؤمن بالحرية، وأنني سأرى الشمس عما قريب،

إذا أردت أن تعرف المزيد عنك فلنلتقي في قهوتنا القديمة عند سيدنا الحسين، وإذا لم تجدني فسوف تجد ذاكرتك القديمة،

سلام عليك وأن كنت لا أرى سلامًا في عالمنا" .

يطوي الخطاب ويضعه في جيبه وقد وقف بضع ثوانٍ في مكانه مبتسمًا، أراد القليل من الأمل الذي يؤمن إيمانًا أعمى أنه لن يتحقق، أراد أن يجد مريم وأن تعود سما مرحة كسابق عهدها وأن يلتقي بصديقه ويتذكر حياته القديمة .

أراد كل ذلك ولكنه الآن يرى أنه يريد قليلًا من الهدوء الأبدي أو بالأحرى موت أبدي .

لم يكن في تخيله أن تصبح باريس بلد العشق وموطنه الأذلي بتلك الصورة الباهتة السوداء، لم يكن يرى باريس إلا زهرة خلقت وسط العالم ولا تتوقف عن أن تفوح بعطرها المميز وتغني بصيحات العشق والهوى الجميل .

أما الآن فأصبحت باريس كالكابوس الذي يريد أن يهرب من أركانه وحلقاته، يريد أن يغادر لا إلى مصر ولا إلى شيء يريد أن يغادر إلى السماء .

أراد أن يودع باريس، أراد أن يريها أنها ظلمت سما كثيرًا، وأنها حصلت على أسوأ نهاية في حلقات العشق .

أخذ سما إلى حفلة طرب باريسية في إحدى المقاهي الغنائية، أخذها ولم يأبه بكونها تنسى اسمه أو أنها أصبحت الآن كالكتاب الأبيض الفارغ لا تعرف شيئًا عن نفسها ولا عن عالمها، لكنه أراد لها بعض المتعة أراد لها ألا تذهب بدون أن تتمتع بموسيقى باريس الليلية الهادئة .

يرتدي بدلته السوداء وقد كان أنيقًا مهندمًا، وكأنه في أول موعد غرامي له، وسما جالسة على كرسيها المتحرك يدفعه يوسف، وكانت مرتدية فستانًا قرمزيًا وكانت متزينة بزينة لا تعلم عنها شيئًا ولا تهتم لنفسها، وحده يوسف أراد هذا، أراد أن يراها أجمل النساء كرؤيته لها دائمًا .

كانت تسير صامتة تنظر إلى الأشياء بعفوية الأطفال وسذاجة الطيبين .

يدفع كرسيها مبتسمًا فلربما قد يكون لقائهما الأخير ولربما تكون رؤيته الأخيرة لها .

يحاول أن يجد السعادة التي ظل عمره كله يبحث عنها، يحاول أن يرى بعضًا منها وأن كانت كاذبة ومصطنعة، وأراد لها هي الأخرى أن تبتسم، أراد أن تستمع إلى موسيقى باريس الهادئة، أراد أن يحقق أمنيتها تلك التي أخبرته بها في أولى أماكن لقائهما: "آمل أن أزور باريس وأن أرقص على النغمات الفرنسية الهادئة تلك التي تحي العشاق وتعطيهم حياة فوق الحياة، أريد أن أسكن هناك تحت سمائها إلى أن يقتنصني الموت" .

يتذكر تلك الكلمات وقد وصلا للقاعة الموسيقية في ليل باريس الهادئ، يتذكر كلماتها وينظر إليها وقد أخذت الموسيقى في الانطلاق .

هي كانت كالأنشود الصامتة التي تعبر عن محتواها بالصمت، ينظر إليها ويرى في عينيها الجمال، كانت تبتسم وهي تستمع إلى تلك الموسيقى الهادئة، كانت لا تدري شيئًا عن كونها في هذا المكان ولا تدري شيئًا عن يوسف ولا تعلم شيئًا عن هويتها وعن شخصها المجهول ولكنها سعيدة بتلك الموسيقى .
هي كالأطفال حين تشجيهم أصوات الموسيقى التي تلحن بهدوئها مشاعرهم وتهيج ما بها من أحاسيس قد دفنت في موضعها البدائي .
أخذ ينظر إلى العشاق حولهما وقد أخذ كل منهما بيد الآخر وبدأوا يحلقون في فلك الموسيقى وأخذ كل منهم يرقص على نغمات الهوى الخيالية المستحيلة .
ينظر يوسف وقد عجز أن يحقق نصف أمنيتها، عجز أن يجعلها تطير وسط هؤلاء النجوم، ينظر وهو منكسر فكيف لذلك الملاك أن يرقد ولا يطير لم يصبره غير سعادتها ورؤيتها لتلك الأضواء المضيئة على صوت الموسيقى رؤية تعجبية وكأنها منبهرة بعالمها ذلك ومعجبة بكافة تفاصيله .
ينظر إليها يوسف ويقول لها:
- أتشعرين بالسعادة؟
لم تجبه هي فقط أعطته ابتسامة رأى أنها الرد المناسب في ذلك المكان ورأى أن لتلك الابتسامة حياة جديدة له .
- تلك موسيقى باريس التي كنتِ تحلمين بها، وعلى يمينك برج إيفل، أعلم أنك لا تفهمين كلامي هذا، وأعلم أنك قد نستي كل هذا، لكنني أريدك أن تكوني سعيدة، سعيدة فقط .
أنا أدعى يوسف كنت في يوم من الأيام حبيبكِ، وتلك كانت أمنيتكِ قديمًا حين أخبرتيني أنك تريدين أن ترقصي معي هنا بجوار برج إيفل وأن تستمعي لموسيقى العشق هنا تحت سماء باريس هل تتذكرين؟
أخذت تنظر إليه مبتسمة وقالت بكلمات متقطعة:
- أحدث هذ الكلام حقًا؟ إذن فلا بأس إن رقصت معك .
نظر إليها وقد أصاب الوجع كل قطعة من جسده، وقد امتزجت بلحظات أُنسه بها .
- أغمضي عينيكِ يا سما وتخيلي أنني أرقص معكِ، أريدك أن تتخيلي كل شيء وأنت تستمعين إلى تلك الأغنية .

أغمضت عينيها وأخذ ينظر إليها وكانت صامتة هادئة وفجأة وقد وجد الابتسامة تظهر على كلتا شفتيها حينها علم أنها تتخيل الآن علم أنها الآن تحت وطأة الأحلام .
وما لنا غير الأحلام نحن معشر المنهزمين، وما لنا غير الخيال نحن العاشقون .
يمسك يديها علها تكون اللحظة الأخيرة له بجانبها أو أنها آخر النظرات التي يراها بها .
- أعطني وعدًا بألا تنسينني مرة أخرى؟
- لكني لا أذكرك .
- لا يجب أن تكوني تعرفينني أنا مجرد إنسان وقد جعلكِ تشعرين بسعادة مؤقتة ولو لبضع دقائق فلتذكريني ولتذكري تلك اللحظة .
- أنا سعيدة جدًا وأؤمن أنني لا أنسى اللحظات السعيدة كتلك .
رد عليها غاضبًا:
-لكنكِ قد نسيتيني ونسيتي أوقاتنا الجميلة، كفاكِ كذب يا سما .
ردت عليها بصوتها المتهدج الذي كان يقتله في كل لحظة:
- أنا لا أكذب عليك .
ومدت يدها وأخذت تتحسس وجهه وتقول مبتسمة:
- أنت مختلف عن جميع الاحتمالات فأنت شهم وطيب وأنا لا أنسى الجميلين أمثالك .
أمسك يدها وفتحها فرأى اسمه وقد أزيل لأنه يعلم أنها نسيت أن تكتبه بقلمها كما كانت تفعل كالمعتاد سابقًا، فهي نسيت كل شيء حتى كتابة اسمه كل صباح نسيته، حتى نسيت شخصه ونسيت كل شيء عن كونه يوسف حبها القديم .
أخرج قلمه وأخذ يكتب اسمه على باطن يدها وهي تنظر في استغراب وتعجب .
- أنا يوسف يا سما إذا نسيتيني يومًا فعليك أن تنظري ها هنا في باطن يدك فقط وأؤمن أنك ستتذكرينني .
لم تجبه ولم يجد غير الصمت الممزوج بالعجز ردًا له على كل شيء .
لم يعد يؤمن بالصدف ولا يرى في الصدفة أي شيء غير النسيان، هو الآن يؤمن بالنسيان ويؤمن أنه بداية الموت، يرى أن النسيان هو العذاب الأكبر في عالمه هذا، لا يرى هناك راحة في كونه نسيان لا يرى إلا أنه منبع الألم .

ومن منا لا ينسى ومن منا لا يحب ومن منا لا يحب إلا لأنه ينسى؟
ومن منا قد قتله النسيان .
وما كانت باريس للعاشقين إلا منارة لعشقهم، هكذا كانوا وإن تبدلت الأشياء فيبقى الحب .
يبقى الحب رغم النسيان ورغم الألم ورغم القدر، وما للقدر بقدرة على الحب وما لشيء بسلطة على العشاق، حتى وإن نسوا كل شيء وكل تفصيلة وكل عالم في مدارات الكون فلن يُنسى الحب .
الحب لا يُنسى، الحب يبقى رغم العواقب والهزائم، الحب باق وإن اختلفت حالاته، فأحيانًا يكون الحب وردة متفتحة، وأحيانا يصبح ذكرى ولكنها جميلة، وأحيانًا يصبح مجرد أطلال، وكثيرًا ما يصبح قبرًا وفى كلتا الحالات يبقى الحب بأوقاته الطيبة تارة وأوقاته الموجعة تارات كثيرة .
عادوا إلى مصر بالتحديد إلى المصحة النفسية موطنهم وموطن لقاءهم الأول .
عادا وإن خسرا الكثير من الأحلام، ولكن يوسف قد فاز بحب جديد لم يُبيد حبه القديم الساكن أبد الدهر .
عادا وعاد معه كافة الأوجاع التي لو وزنت لغلبت الأرض وما عليها من زهور، عادا ولكنهما ظلا في قلبي بعضهما ساكنين وإن نسيا وتذكرا فالحب باق ولا يفنى .
يدخل إلى غرفته القديمة بعد وقت مر كأنه زمن طويل، فدائمًا الأَوقات الحزينة ما تغيب في إدراكها أما السعادة فهي لحظية عابرة وكأن القدر أحب إليه أن يمنعها عنه .
ينظر إلى شرفته تلك الشرفة التي حملت الكثير من المشاهد الحياتية، فهنا حيث أنقذ شخصًا يومًا أراد الانتحار، تذكر ذلك المشهد وتمعن في طياته وقال في نفسه: "لماذا لم أدعه يموت؟ من المحتمل أن يكون إنقاذي له موت جديد ولكن على قيد الحياة والآن أؤمن أن هناك أمواتًا تتنفس، أمواتٌ ولكن لا يشعرون" .
هكذا الحياة دائمًا تأتي بما لا نرغب، فهو أراد حياة في موته لكن يوسف قد منعه حياته حين أنقذه .
يتأمل في ذلك الموقف يرى أنه قد أتى وقت الحياة الجديدة وأنه لا بديل عن الانتحار, يقترب من باب شرفته حتى عُرض على عينيه مشهد سما حين اعترفت له بحبها لأول

مرة في ذلك المكان، يتذكر تفاصيل الموقف جيدًا يحفظه فهو حينها وقد كسر قلبها، وندم لكنه حين أراد أن يصحح ندمه قد فات الآوان وأصبحت سما بضع لحظات من الذكريات المنتظرة لحتمية الموت .

يسير في الشرفة حتى وصل غرفتها وأخذ يختلس النظر من وراء الزجاج .

كانت نائمة كالقمر ليلة التمام وخصلاتها الفريدة وقد غطت جسدها لطولها وكأن القمر وحده وقد أنار وسط ظلام السماء .

ينظر وقد اصطدمت زاوية رؤيته بالكرسي المتحرك ذلك الشيء الصامت العاجز الذي يعبر عن الموت .

ينظر إليه بغضب وكأنه أهون عليه أن يكسره لكن الراحة المطلوبة من بعض خباياه هي من منعته عن ذلك .

ينظر إليها تمنى لو أنها مستيقظة الآن، بل تمنى لو أنها تتذكره، أراد أن يخبرها بحبه لها، أراد أن ينطقها لها، وأن يرى الفرحة في سحب عينيها وهي تطير، أراد أن يحتضنها حضنهما الأخير، أراد أن يرقص معها مجددًا فوق سطح المبنى على موسيقى فيروز، أراد أن يجري معها وأن يتسابقا وسط قطرات الأمطار، أراد أن يحملها فوق كتفيه ويطير بها وسط النجوم، وأخيرًا أراد لها أن تبتسم له وأن تتمتع بقليل من الحياة .

لم يجد جوابًا لتلك التساؤلات سوى النوم، بعد عودته من رحلته القاسية من باريس أراد أن يلجأ إلى عالم الأحلام، أراد أن تحنو عليه بأمنها الذي افتقده في عالمه الحقيقي, أغمض عينيه لكي يرى السلام وبعض أزهار تحيطه، ولكي يرى حتمًا "سما"، فما عجز عن رؤيته سيجبر أحلامه وخيالاته أن تريه مثل تلك الخيالات التي يأملها .

فعالم الأحلام هو موطن المقهورين وملذة العابرين إلى دروب الخيال بعيدًا عن وجع الدنيا الذي يطوي الليل بالنهار ولا يدع ذرة من حب تعبر بين قلوب العاشقين .

هو يحب خيال ما قبل النوم رغم استحالة تحقيقه، فهو خيال وسيبقى محال لكنه يرى فيه أشياءً عجز واقعه عن تحقيقها .

" فلا أُبحر ولا أرسي . . وأنت الموج في بحري"

ليل هادئ فريد يعشقه يوسف ولا يوجد غيره، وحيدٌ في ذلك المكان مشعلٌ سيجارته لعلها تهديه شيئًا من الدفء في ذلك الطقس البارد .
يجلس أعلى سور الجسر وتسير تيارات الماء الهادئة أسفله وكأنها تشاركه الخيال .
ينظر إلى النجوم في السماء يريد التعرف على نجم الشمال، ولكنه عاجز كسابق أيامه وكأنه سيحيا دائمًا تائهًا منكمشًا في قوقعة عالمه المجهولة .
ينتظر سما حيث تواعدا على اللقاء في ذلك المكان .
تقترب سيجارته على الانتهاء ولم تصل بعد حتى لمح خيال ظلها من وراءه
- لماذا تأخرتي يا سما؟
لم تجبه ظلت صامتة وأخذت تنظر إلى النجوم، استغرب من حالها ومن هدوئها غير المعتاد، فاستدار وراءه حتى اندهش فجأة وقال:
- مريم؟ كنت أعلم أنك على قيد الحياة .
نظرت إليه بعفوية وتلقائية:
- ألم تفهم واقعك بعد يا يوسف؟ سما هي مريم ولكن لو كنت تتذكرني لعرفت ذلك في أول يوم رأيتني به .
نظر إليها مستغربًا وكأنه في حالة ضياع من حاله:
- لماذا لم تصارحيني من البداية إذن أنك مريم لماذا تركتيني أتعذب كل تلك الفترة؟
- وماذا على أن أفعل ولم أفعله؟ لقد ظللت عمري كله أحبك .
- وأنا قد عشت حياتي كلها أبحث عنكِ وحين أجدكِ تكوني قد اختفيتي .
أخذت تنظر إليها صامتة ولم تجبه بشيء سوى الصمت الذي أخذ يحرق كل ركن من أجزائه .
أخذ يدفعها يوسف بكلتا يديه:
- أجيبي يا مريم أجيبي سكوتكِ يقتلني .
أخذ يدفعها حتى اختفت من أمامه وكأنها كانت سرابًا وهو لم يقدر على أخذ

أنفاسه، أخذ يتنفس سريعًا لكنه لم يقدر على الصمود بعد .
يستيقظ من حلمه ذلك الذي خنقه يستيقظ وينظر إلى سقف حجرته مذهولًا متوترًا وقد ازدادت ضربات قلبه وأخذ يتعرق حتى امتلأ جوفه بالاستغراب والتيه .
هي المرة الأولى له التي يحلم بمريم ويتذكر وجهها في حلمه يبتسم ويعلم أنها مريم بعينها البنية وشعرها الداكن السواد وكأنه الليل الشريد، أخذ يتذكر كل تفصيلة من تفاصيل وجهها حتى استعاد وجهها كاملًا استعاد ملامحها وتكوينها، استعاد كل ذاكرته عن مريم تلك التي ظل حياته راهبًا في عشقها، وظل يبحث عنها في دروب العالم حتى انتهى به المطاف هنا حيث منشأ الخيال في عالمه .
يبتسم ابتسامة ممزوجة بالقهر تلك الابتسامة التي تقتل الفرح وتنهي ما تبقى من بدايات السعادة، فهي مجرد ابتسامة زائفة ماكرة تخفي وراءها كثيرًا من الأوجاع .
فهو يبتسم لأنه تذكر مريم ولكنه تذكر أيضًا أنها سما تلك التي التقى بها في أولى أيامه بذلك المكان، فلم يستطع عقله حينها أن يتذكرها وظل هكذا تائهًا باحثًا عنها لكنه لم يدرك أنها بجانبه .
ما أعجزه من شعور حين تبحث عن حبك القديم المفقود وكل أحلامك وخيالاتك تخبرك أنه ما زال حيًا وأنه ما زال في ركاب الحذرين وأنت تُقتل كل يوم وتدفن ثم تحيا مرة أخرى، حين تجد حبك القديم وتتذكر أنه كان بجانبك من البداية ولكن لقرارات القدر رأي آخر ولحتميات الحب وجع جديد .
ألتلك الدرجة أصبح يبلغ من اليأس الكثير والكثير لا يدري متى سيشعر بالراحة ويجاور حبيبته أبد الدهر .
ينسى كل ذلك لا يريد لتلك الأشياء أن تطيح بتلك الابتسامة الصغيرة المسكونة بكل تلك التفاصيل، فمريم تجاوره في غرفتها على بعد خطوات من هنا، ألم يحن الوقت للقاء يريد أن يحتضنها يريد أن يبكي في طياتها ويقبلها من ثغرها، يريد أن يعترف بحبه لها بصفتها مريم لا بصفتها سما، يريد أن يفعل الكثير من الأشياء ولكن تثاقل جسده وكأنه في حلم، أخذ يمسك تلك الطاولة بجانبه حتى تأكد أنه في واقع متجسد أمامه حتى انطلق من على سريره جريًا إلى غرفتها من الشرفة لم يستأذن في الدخول .
دخل غرفتها وأخذ ينادي: "مريم، أين أنت؟"، لم تجبه مريم لم يجدها في غرفتها، لم يجد إلا مفكرتها تلك التي كانت تكتب بها تفاصيل يومها، أخذ يقلب أوراقها فوجد

في كل ورقة بها اسمه، وقد كان ممزوجًا بموقف محدد أخذ يقرأ اسمه وقد امتلك تفاصيل حياتها وتشارك معها أحداث يومها حتى وجد في آخر ورقة تلك الكلمات .
"اليوم قد قرر يوسف أن يأخذني لنتزلج على الجليد أو صراحة أنا من أخذه لأنه لا يعلم شيئًا هنا في باريس ومن المحتمل أن هناك شيء يشغله أتمنى أن يعترف لي اليوم" .

قرأ تلك الكلمات في آخر أيامها معه حين كانت تتذكره في ذلك اليوم المشؤوم يجدها آخر الصفحات فلم تكتب شيئًا بعدها أو بالأصح لم تجد شيئًا لتكتبه بعدها، فهي الآن لا تتذكر شيئًا قط عن عالمها هي في قمة راحتها الآن أما يوسف فإنه يحتضر ويعيش أيامه الفعلية الأخيرة .

وجد أيضًا ذلك الكتاب وبه الوردة حنين فتحه وأخذ يقرأ أولى صفحاته، تذكر الآن كل شيء عن ذلك الكتاب تذكر أنه هو من كتبه وتذكر ذلك الموقف حين اتفق مع مريم على كتابته،

كانا جالسين على شاطئ البحر، وأخرجت مريم كتاب فارغ فنظر لها يوسف متعجبًا:

- ما هذا الكتاب؟

- هذا الكتاب سنكتب به قصتنا وتفاصيل حياتنا وكافة مواقفنا الجميلة والحزينة، سنجعله رواية لحياتنا أنا وأنت فقط .

-ولما اسميتيه " وبك اكتفيت"؟

- لأنني لم اكتفي بشيء غيرك يا يوسف فقد اكتفيت بك حبًا واكتفيت بك حلمًا وحياةً لا أريد غيرك ولربما كلما رأيته تذكرتك وكان دافعًا في لقاؤنا دومًا بلا أي فراق

- لن يصبح هذا الاسم دافعًا للحب يا مريم ولا للقاء لا شيء غير الحب يدفعنا الي الخلود معه

- لا أحد يعلم نائبات القدر يا يوسف، ولو علم الناس المستقبل لظنوا أنهم أسعد الناس، ولكن الأمر سيصبح في منتهى القهر لأن القدر لا يتيح لنا مواقف سعيدة فقط بل يتيح لنا الموت .

ينظر الآن لذلك الكتاب بعدما اكتملت صفحاته ولم يتبق إلا صفحات قليلة تلك التي سوف يكتب بها نهاية الرواية .

ينظر إليها بشغف وهو يقول في نفسه:

"لا أحد يعلم ماذا سيغير القدر يا مريم" .
أخذ الكتاب والوردة حنين وتلك المفكرة أراد أن يحتفظ بهما، أراد أن يقرأ ذلك الكتاب الذي كتب تفاصيله هو ومريم لكي يستعيد جميع الذكريات القديمة .
يسير على أرضية تلك الشرفة ينظر إلى الحديقة أسفله، يدقق النظر يبحث عن مريم، حتى انتابه ذلك الشعور الذي أصابه بالحيرة الممزوجة بلحن الفراق .
فقد تذكر أن غرفتها خالية تمامًا من أمتعتها لا شيء غير الرواية والمفكرة لا شيء غير عطرها، أخذ يتساءل هل ذهبت وتركته كما فعلت سابقًا؟
هل حينما يأتي موعد اللقاء لا بد وأن يكون للفراق قراره الأخير القاتل .
ينظر بالأسفل حتى وجد الإجابة على تلك الأسئلة، وجد رجل يحملها لتركب تلك السيارة وآخر أخذ يحمل أمتعتها وكرسيها المتحرك بها حينها علم أنها أرادت الرحيل, لم يتملكه شيء سوى اللهفة، فأخذ يجري غير آبه بشيء سواها، يسرع من أعلى السلالم وأخذ يصطدم ببعض الممرضات .
لا وقت للاعتذار إما اللقاء وإما الرحيل، إما اللقاء أو التشتت أبد الدهر في حقبة الذكريات .
ينزل إليها وعلى وجهه ملامح الشوق والشغف، يريد أن يلتقي بها لكنه وجد السيارة وقد بدأت بالسير، فتبدل حلمه إلى أن يحتضنها قبل ذهابها أراد فقط أن يستنشق عطرها قبل أن ترحل، أراد أن يبتسم إليها أو أن يستزيدها من تلك الذكريات، يؤمن أنها ستصبح سعيدة حين تتذكره، وتعلم أنه يوسف حبها القديم، يريد أن يخبرها أنها نجحت حين اسمته باسم حبيبها بالرواية، يريد أن يعطيها شيئًا من الحياة التي سوف تفتقدها بعد أيام، يريد أن يقول لها ذلك اللفظ المبتذل الذي أحبته، يريد أن يخبرها بحبه لها ولو للمرة الأخيرة .
ولكن هيهات، تسرع السيارة في وسط الطريق ولم يجد نفسه يوسف إلا عاجزًا عن اللحاق بها، فما الجديد؟ فقد ظل عمره كله عاجزًا عن الوصول إليها، ولم يجد نفسه سوى ملقى وسط الطريق ممسكًا بتلك الوردة التي قاربت على الذبول والانتهاء وقد ظهر على وجهه علامات اليأس بل هو اليأس وقد تجسد في هيئته .
يتذكر حين التقيا في هذا المكان وقد اهتدى على طريقتها حين نظر إلى النجوم، يتذكر أيضًا حين أخبرته أنها لن ترحل، وكأن ذاكرته الآن لا تريد أن ترحمه بتلك الذكريات،

فلم يجد الراحة في النسيان وأيضًا قد وجد العجز في التذكر فهو الآن يريد شيئًا من الانتهاء الوجودي الأبدي المريح .
عاد مسرعًا إلى إدارة المشفى وأخذ يسأل أحد الموظفين:
- لو سمحت أريد أن أعلم اسم المريضة بالغرفة ٦٧؟
- غير مسموح لي بأن أخرج أسرار المرضى .
- لكنها ليست مجرد مريضة بل إنها حياتي كلها، وذاكرتي وكل شيء، أرجوك أخبرني .
لم يجبه غير ذلك الصوت من وراءه لممرضتها الخاصة:
- اسمها مريم ملاك .
نظر إليها يوسف متعجبًا:
- ولماذا خدعتني وأخبرتني أنها سما؟
- ليس على المريض حرج، ولكن حالتها النفسية هي من صورت لها ذلك، ولقد تعاملت معها ودرست حالتها وقد كانت تعشق السماء وتجد بها الأنس فلربما أحبت اسم سما .
الآن وقد تحقق يوسف من كل شيء هي بالتأكيد مريم .
- حسنًا أريد الآن أن أفعل إجراءات خروجي من هنا .
- ما دامت استردت جزءًا كبيرًا من ذاكرتك، وأصبحت في وعيك التام من السهل أن تكمل إجراءات خروجك .
- حسنًا شكرًا جدًا .
- يوسف نسيت أن أخبرك شيء، لا تحاول أن تبحث عنها، فقط انسها ودعها تحصل على كم من الراحة في تلك الأيام المتبقية لها في الحياة .
لم يجبها، رأى أنه من الأنانية لو بحث عنها ليغطي فضوله من الشوق، ولكنه سيصيبها بقدر كبير من العذاب، وأيضًا أراد أن يشفي جروحه، أراد أن يراها ويتأملها على كونها مريم حبيبته القديمة، أراد أن يلتقي بها في موعد حقيقي بالمساء ليس بموعد زائف في خريف الأحلام .
خرج من ذلك المشفى الذي يعتبره في ذاته وقر الأحلام والخيال، فقد أصبح يكره ذلك المكان، يكرهه لأنه بخل عليه أن يخبره أن مريم ها هنا معه، بخل عليه أن يخبره بحقيقة اللقاء الغائبة تلك، جحد عليه بكل أسباب السعادة لا شيء غير نوبات

الوجع وصعقات الاشتياق .
يخرج من ذلك المكان بمحفظته الحاملة بعض الجنيهات، ورواية مريم ومفكرتها وتلك الوردة التي أصبحت صديقته من اليوم والتي وعد نفسه أن يعيدها إلى مريم وأيضًا معه الكثير من الأحلام .
تلك الأحلام التي لم تفارقه وظلت معه دائمًا رغم كل شيء، فهو شخص وفي لأحلامه وقلة هؤلاء الأوفياء للأحلام، فالكثير يستسلم لمجرد أن موجة قد انتفضت في وجه حلمه والبعض قد باع أحلامه من أولى اللحظات أما هو فإنه يفضل الموت على أن ينسى حلمًا من أحلامه .
يسير ليلًا وحيدًا في ذلك الشارع الذي قد كان آخر لقاء معه فيما يزيد عن عام يسير وقد بدأت الأمطار في الهطول .
إنه وقت الأمطار المفضل حين تسقط لتواسيه، فالأمطار لا تنزل هباءً الأمطار تنزل فقط لكي تخفف أحمالنا ولترافقنا في أحلامنا .
يرتدي كوفيته ويغطر رأسه بجاكت أسود يسير وقد استسلم لكل شيء إلا الأمطار، يريدها ألا تتوقف، يريدها أن تزيده عشقًا وحبًا وأن تحنو عليه بعطفها، يسير والسواد يحيطه من كل جانب، لا شيء غير بعض النجوم البعيدة وأضواء الأعمدة القريبة، يسير في الفراغ لا أحد بجواره حتى تعب من المشي ولم يجد سوى شجرة على الجانب، اتخذ منها موضعًا ليقيم ليلته تلك التي مرت عليه وكأنها آلاف الأعوام .
وضع جاكته على الأرض واستلقى الآن وقد شعر ببعض الراحة ووجد قليلًا من السلام وراحة البال .
نائم وسط الهدوء، لا شيء غير القمر يؤنسه ولا شيء غير النجوم تراقبه في صمت، أما هو فاتخذ من خياله رفيقًا جديدًا ومن أحلامه عالمًا ليس بالجديد عليه .
مرت الساعات واستيقظ صديقنا على أصوات السيارات وفتح عينيه على امرأة قريبة وقد أخرجت بضع جنيهات وألقتها بجواره، فنظر إليها متعجبًا:
- لست متسولًا .
لم تجبه بل تركت النقود وذهبت لم تشأ أن تحرجه أو أن تزيده قهرًا، فماذا يفعل هنا إلا إذا كان من أولئك المقهورين الذين قد مزقهم الدهر إربًا ورمى أشلاءهم في ذاكرة النسيان .

أخذ يوسف تلك الجنيهات على استحياء، أخذها وقد بادره الشك، أكمل سيره في طريقه إلى المجهول، وهو كاره لنفسه ويتساءل علام أخذ تلك الجنيهات؟ هل أصبح الحالمون في هذا العالم شحاذين في نظر العامة؟ هل يصبح من قهر القدر في هذا الزمان واحدًا من المتسولين؟ يعترف أنه واحد من المتسولين، لكنه يتسول نوعًا خالصًا من الحب المفقود .

يسير حتى وجد متسولًا جالسًا جانب الطريق، وقد مزقت ثيابه وبهت شكله وكأنه في أمس الحاجة للحياة، أعطاه تلك النقود مبتسمًا وكأنه يخبره أنها ليست ملكه فلتدعو لصاحب الصدقة .

لم يقاطعه في سيره سوى تلك الكنيسة على جانبه، جذبته أجراسها، يتذكر أنه مسلم، ويتذكر أنه دخل تلك الكنيسة في يوم من الأيام، فلم يجد في موقفه هذا سوى الدخول لأنه أراد بعض من الراحة، أراد أن يلهمه الإله الأمن، أراد أن يقترب من الله حتى يقترب من حلمه، دخل الكنيسة وأشعل شمعة مع المتواجدين معه، ومن ثم دخل إلى قاعتها ووقف وسط الجميع خلع حذائه وقال بصوتٍ عالٍ:

- الله أكبر .

وبدأ في قراءة الفاتحة وأخذ ينظر الجميع إليه مندهشين ومذهولين مما يرونه أمامهم، يتسائلون هل هو مريض؟ أم أنه أبله؟ أم أنه على دراية بما يفعل؟

لم يكن يعلم القبلة لكنه كان يعلم أن الله يراه ويطلع عليه من أي جانب ومن أي ركن، يؤمن أنه يسمعه ولو كان في كنيسة أو معبد أو أي مكان يذكر فيه اسمه .

ربما اختلطت عليه الذكريات وظن أنه المكان المناسب لصلاة المسلمين ظن أنه ها هنا يسجد وها هنا يوحد .

اتجه بعض المسيحيين إلى القس يخبرونه بشأن هذا الرجل، فأتى إليه وأخذ ينظر إليه باستغراب:

- لا تقتربوا منه، دعوه ليكمل صلاته .

انتهى يوسف من صلاته وأخذ ينظر دامعًا إلى صور الكنيسة أمامه، لا يدرس ما هي ولا يتذكر شيئًا عن طقوسهم، رغم أنه وقد كان نصرانيًا قبل دخوله الإسلام .

أخذ ينظر بعين دامعة ويدعو الله، أراد أن يأخذه بجواره وأن يريحه قليلًا من حالته تلك .

انتهى من دعاءه وقام من مكانه منكسرًا، لم يكن يعلم أن الجميع ينظر إليه، ولم يكن يعلم أنهم مندهشون من فعلته حتى تلقاه القس .

- أأنت مسلم يا بني؟

لم يجبه يوسف، لم يفعل شيء سوى أنه هز رأسه بالقبول .

ونظر القس إلى يده حتى وجد مكان الصليب المنزوع، وتأكد أنه دخل الإسلام، لكنه شك من حالته النفسية، شعر وكأنه ليس على دراية من واقعه، ربما مريض أو ربما أنه ليس في كامل وعيه .

- حسنًا ما اسمك؟

-أنا أدعى يوسف .

- حسنًا يا يوسف ولكن ألا تعلم أن المسلمين يصلون بالمسجد، وأن الكنيسة خاصة بالمسيحيين فقط؟

تذكر يوسف كلامه وتذكر أنه لا ينبغي أن يكون هنا .

- اعتذر بشدة فأنا أخجل لفعلتي يا سيدنا الشيخ، ولكنني مريض ولم أوشك أن خرجت من المصحة النفسية، فبعض الأشياء غائبة عن ذاكرتي بعد .

نظر إليه القس مبتسمًا:

- شيخ!

- آسف يا أبونا لا تكترث لقولي، أريد أن أسألك فقط هل سمعني الله هنا وتقبل صلاتي؟

- الله يسمعك في كل مكان وفي أي وقت .

- وما الفرق إذن بين الصلاة بالمسجد أو الكنيسة؟

ابتسم إليه القس ومسح على رأسه وكأنه يعطيه قليلًا من الأمن الذي وجده ناقصًا على معالم وجهه .

غادر يوسف الكنيسة يتذكر أسماء الجوامع حتى تذكر جامع سيدنا الحسين، هناك حيث القهاوي التي كان يلتقي فيها بأصدقائه لكتابة الشعر، يتذكر حديث صديقه فرغلي حين أخبره عن موعد لقاءه بذلك المكان .

يشاور إلى أتوبيس النقل العام ويجري إليه حتى التقط مكانًا وسط الزحام المعهود . ذلك الزحام الممتلئ بالقصص والحواديت المميزة للفقراء من القوم، ينظر إلى كل

وجه وقد كتب عليه آلاف القصص من الوجع وآلاف المشاهد من القهر .
يرى كل في عالمه وكل في خياله، ينظر إلى سيدة وقد أخذت تشكو الدنيا وتتفوه بكلام غير مفهوم وآخر يحمل طفله وكأنه يحمل قدرًا من الألم لما أصاب ابنه من مرض .
كل في زاويته يدعو الله أن يفك كربه لم يريدوا أن ينالوا نصف حظ الأغنياء أرادوا الرضا فقط لا شيء أكثر منه .
وبينما هو على ذلك وقد شعر بيد تتلمس جيوبه فأخذ ينظر بنصف عينه إليه مبتسمًا وأخرج بضع جنيهات من جيبه إليه:
- والله لا أملك غيرهم ولكن معي ما يكفي لأعطيتك .
ينظر إليه ذلك اللص متعجبًا لم يكن يعلم أن هناك في هذا العالم شخصًا يفهمه .
فلولا القهر لم يكن يتجه إلى السرقة يومًا ولولا الألم لما أخذ شيئًا ليس بملكه .
- أعلم أنك لا تجد اللقمة ولكن حاول أن تسعى وربك كريم .
نظر إليه اللص دامعًا:
- أنت لو تعلم قصتي مستحيل أن تقول ذلك .
ابتعد عنه وكأن هناك شيئًا خامد وقد أيقظه به يوسف .
ربما أشعل به الكثير من الألم وأحيا بداخله الكثير من القهر .
رأى يوسف أنه من الجيد النزول في ذلك المكان وقد هدأت حركة الحافلة .
نزل وقد نظر إلى الرجل في الحافلة وقد رأى به ملامح الانكسار,
لم يكن يوسف يريد أن ينقل الألم إلى المقهورين من حوله ولا أن يشعل كل ما دفن في مشاعر الآخرين من وجع وقهر .
نظر إليه يوسف مبتسمًا وكأنه يقول له أنه وإن علم قصته فلن تكون بكم القهر التي في قصته الآن .
سار بضع خطوات حتى وجد مسجد سيدنا الحسين وقد تذكره من نظرته الأولى، حتى دخله وصلى وتذكر بعض ذكرياته ومشاهده بداخله ثم دخل في نوم عميق .
هكذا جامع سيدنا الحسين يجمع المقهورين في ساحته، أولئك ممن انكسرت قلوبهم وانفطرت أهوائهم الجميع في صحنه كل يشكو همه وكل يدعو الله أن يزيل البلاء .
أما يوسف فهو يخاف من النوم، يخاف من أحلامه، لا يريد أن يراها مرة أخرى، ففي كل مرة تظهر له في حلمه تقتله ثم تدعه في خلوته وتذهب حتى يبقى وحيدًا .

فلا شيء غير الوحدة يخاف، رغم أنها سكنه وملاذه ولا شيء غير الحلم يخشى، رغم أنه بالأحلام حياته ولا شيء غير القهر يفر ويهرب رغم أنه في بؤرة القهر قد قتل .

"حين يُباع الحلم قهرًا . . ويُختزل الخيال"

استيقظ على صوت المؤذن لصلاة الفجر وقد حظى بلحظات نوم هانئة لم يدركها منذ فترات طويلة .

صلى الفجر وخرج منذ الشروق إلى مقاهي مصر القديمة، فقد ظل سائرًا منذ أن خرجت عليه الشمس في شارعها يسير وقد رأى الناس وقد أقبلوا على أعمالهم منذ البكور .

بائع الفول وقد جهز عربته، البائعون وكل قد خرج لطلب رزقه بالأسواق فكل خرج في طلب مبتغاه إلا يوسف قد خرج ليبحث عن ماضيه .

البحث عن الماضي في أساسه مستحيل، فما يواريه الماضي لا يمكن إخراجه إن دفن في طى النسيان، فالبحث في الوراء ما هي إلا مغامرة مؤلمة ومستحيلة .

يسير ويدقق بنظره إلى المقاهي من حوله حتى اقتطع نظره ذلك المقهى الذي لم يكن مظهره بالغريب عليه إدراكه، فهو يذكر أنه دخل هنا من قبل، يذكر تفاصيلها وأجوائها لكنه لا يتذكر من بها .

قدم إليها واتخذ مقعدًا بها، وظل في مكانه صامتًا يحاول أن يتذكر كيف كان يكتب الشعر هنا، وكيف كان يلتقي بأصدقائه في هذا المكان .

حضر إلى مسامعه حوار اثنين ممن اتخذوا مقعدًا بجانبه وقد كان يقول أحدهما إلى الآخر:

- هل حضرت الشعر الذي ستبيعه؟
- لقد جهزته منذ أمس .
- إذن فلتنتظر معي فسمسار الشعر سيصل الساعة العاشرة .
- حسنًا وما هي أسعاره؟
- سيقوم بتقيم قصائدك أولًا على ذوقه الخاص، ولكن لا تخف ستحصل على مال كافٍ .

- حسنًا على بركة الله .
يستمع يوسف إلى ذلك الحوار عن دون قصد وما أن انتهيا حتى ذهب وأحضر قلم وبعض أوراق فقد أتته الفرصة الآن لكي يعيش ولكي يكسب بعض المال مما يعينه على مشقة الحياة ومما يعطيه نفسًا ولو كان قليلًا حتى يلقى مريم .
وأيضًا وهو الأهم في نظره فقد استوحش الشعر والكلمات، وقد شعر بالشوق إليهم فهو وإن نسي التفاصيل والأركان فلم ينس الشعر .
فالشعر لا يُنسى، الشعر محض الكلام ومعقل المشاعر، الشعر إحساس الخيال حين يجتمع مع الواقع، فلا الحلم يُنسى وأيضًا الشعر من المحال أن يُنسى .
أخذ يكتب الشعر في حب مريم، وأخذ يكتب من الغزل مالم يستطع أن يصفها به، فلا الشعر يصفها ولا الحقيقة تصفها لا شيء غير الخيال هي مريم .

"لا حب بعد الآن يا أنشودتي .. لا شعر لا كلمات تحمل غنوتي
فالشعر بعدكِ لا يُصاغ بلذةٍ .. كانت لك إكليلُ عشقك وحدكِ
فاليوم بات مهمشًا في ذاته .. والغد صار معلقًا في ذكركِ
والقمر لا أرجو رفيقًا غيره .. أتعمق الأنظار لأذكر وجهكِ
رفقًا حياتي لا تطيلي ظلمتي .. لا شيء فيكِ قد عنى من عنوتي
فالعشق قد هُجرت مناسك عشقه .. أنت الحبيبة لا هوى من بعدكِ
فالقمر صار متيمًا في ليله .. والقلب صار متيمًا في عشقكِ
والعين لا تأمل لقاءً مشرقًا .. من بعد أن غربت شموس بقاءكِ
ما لي أراني والحياة كئيبة .. وكأنني آنست يوم فراقكِ
لا حلم لا أفكار تدنو شرفتي .. أم هل نسيتِ الوعد بل هو قدركِ"

وأيضًا وجهته يده إلى الكتابة عن قهر الحياة ومواجعها، وإن كان لا يريد ذلك ولكن المشاعر قد فاضت بتلك الكلمات وقد آن أوان كبح جماحها وإزالة الضغائن عله يجد بعض الراحة .
أخذ يكتب حتى انغمر في عالمه أمامه فنجان قهوة وصوت المذياع وقد أشعل أغاني أم كلثوم كل الأجواء وقد احثته على الكتابة، فهو لا يمل من الكتابة هي خير رفيق وخير سند في رحلة الأُنس التي بدأها في محافل الذكريات .
أخذ يكتب حتى أخذه الوقت معه إلى حيث لا يدرك وقد أتى سمسار الشعر الذي

يدعى عم شوقي فاستقبله الاثنين وجلسوا سويًا .
اختلس يوسف النظر إليه وأخذ يدقق في ملامحه وقد كان وجهه مألوفًا إليه بوجهه المستدير وشعره الأبيض ولحيته البيضاء .
ينظر إليه وكأنه يعرفه فهو دائمًا ما يصدق حدسه .
فالحدس في أوقات العزلة هو الدليل، بعيدًا عن بحور التوقعات، فالحدس هو نصف إدراك المرء، فغالبًا لا يكذب الحدس وكثيرًا ما تكذب التوقعات .
أخذ ينظر إليهم حتى انتهوا من حديثهم وأخرج عم شوقي ورقة بمئتي جنيهًا وأعطاها لهما ومن ثم عادا أدراجهما .
علم يوسف أن الفرصة وقد سنحت لكي يتقدم إليه ويعرض له ما قد كتب من أشعار، فقام من مكانه وتقدم إليه وجلس بلا سابق كلام ولا سابق تحية .
جلس وقد حل الصمت عليهما حتى بدأه الرجل بالحديث مازحًا:
- هل أصبحت مشهورًا؟ هل انتشرت دواوينك؟
لم يجبه يوسف وقد ظل صامتًا غير مدرك لما يحدث .
- هل تعرفني؟
ضحك عم شوقي بشدة:
- أتمزح معي أم أنك أصبحت أبله؟ أخبرني ما الذي ذكرك بي الآن؟
قال له يوسف متعجبًا:
- صدقني أنا لا أكذب عليك، لقد مررت بظروف قاسية وفقدت ذاكرتي، وأنا أشعر أنني أعرفك شكلًا، لكني لا أتذكرك فعليًا .
- أنت لو تتحدث بصدق فإني سامحتك، أما إذا كنت تكذب فإنني أقدر ألا أجلسك هنا مرة أخرى،
نصف من يجلس هنا يعمل معي أم النصف الآخر فهم مثلك حين قابلتك أول مرة .
- أرجوك وضح أكثر، لأنني لا أفهم شيئًا .
-حسنًا سأذكرك يا يوسف، قديمًا كنت أعرفك وأعرف أنك شاعر موهوب وأنك من أفضل الشعراء الذين قد تعاملت معه، ولكنني حين طلبت منك شراء أشعارك رفضت وقلت لي أنك ستحقق حلمك يومًا وستصبح الأفضل بين الشعراء وأن ذلك الحلم لا يقبل البيع وأخذت تتفوه بكلام الحمقى، ذلك الكلام الذي لا ينتفع المرء منه شيئًا

وقلت أن أشعارك هي جزء لا يتجزأ منك، وهل أحد يستطيع أن يبيع جزء منه .
أخبرك الآن يا يوسف أن الناس تبيع كليتها لتعيش، أعرفت كم وصل الحال لحلمك؟
- حسنًا أعتذر إليك يا عم شوقي، لم أكن أعلم بغدر الزمان وحقيقته المرة، لم أكن أعلم أن الأحلام خلقت لكي لا تتحقق وأنه ليس هناك أحلام تتحول إلى واقع، وأنها لا تغادر سراب الخيال الذي نبعت منه .
سامح الله من رباني على مبدأ الأحلام، أنا إلى الآن لم أحقق أي حلم أنا لم استفيق من حلمي من الأساس كي أحققه .
- أتذكر ماذا كان ردي عليك حينها؟
- والله لا أذكر شيئًا .
- سأذكرك الآن لقد أخبرتك أن تذهب لحال سبيلك ولكن تذكر أنك ستعود لي في يوم من الأيام وحينها سوف أرفضك وأترك شعرك مدفون هناك في الركن بجوار مضجعك .
لم يرد عليه يوسف وظل صامتًا وكأنه يستحي قليلًا، ثم نظر إليه عم شوقي مبتسمًا:
-حسنًا أرني الآن ماذا تريد أن تبيع، لا بل قل لي عدد القصائد التي تريد بيعها، فأنا لا أراجع الشعر وراءك ولا أقيمك يا يوسف، حدد سعرك فأنت شاعرنا الفذ .
نظر إليه يوسف على استحياء:
- أتمزح أم تتحدث جد؟
- لا إله إلا الله وماذا سأنتفع إذا مزحت معك؟
- لكنك أخبرتني قديمًا أنني إذا عدت لن تبتاع شعري .
- هذا كلام وقد خرج في لحظة الغضب يا يوسف، لكنني حين أراك الآن وقد دهسك الزمان ومزقك، وأنك في أمس الحاجة إلى المال سأكون بلا رحمة إذا لم أبتع شعرك، أتظن أنني أتاجر وأكسب من ورائكم أقسم بالله أنني لا أفعل شيئًا سوى مساعدتكم في هذا الزمن الأسود لا يوجد أحلام تتحقق في هذا الزمان إما أن تبيع لكي تعيش أو تعيش لكي تُباع .
أتعرف أن كل الشعراء في جيلك ممن أعرفهم قد باعوا ولم يتبق غيرك وقد كنت أنتظرك يا يوسف .
-لم أكن أعلم أن الحياة وطبيعتها هكذا قاسية، لقد كنت أطمح في المدينة الفاضلة

واصطدمت في مدينة الغابة ومدينة الأحلام المنتهية .
- أنا الآن أنتظر النصف الآخر بتلك المقهى لكي يبيبع وأؤمن أنه سيبيع قريبًا جدًا، من الجنون أنك لا تبيع وتموت، فرض عليك أن تبيع لكي تحقق حلمك أو لكي تعيش وحينها ستدهس بقدميك كل من وقف في طريق حلمك القديم .
لم يقتنع يوسف بكلام عم شوقي فقد تربى على أن يحقق حلمه أو أن يموت دونه، يعلم أن ذلك حمق منه وأنه من باب الجنون والموت البطيء ولكنه فضل أن يقاتل حتى النهاية .
أما الآن فقد قرر أن يبيع لا لنفسه وإنما لمريم فإن كل شيء في سبيل البحث عن حبه مباحًا لا كرامة فوق الحب ولا حلم فوق حلم مريم .
يقول في نفسه: "أنا مستحيل وأن أبيع يا مريم لكنني الآن قد بعت لأجلكِ أنت، لأني أحبك وأنا أثق أنك ستقبلين مني هذا لأنك لو علمتي حالي لن تبخلي علي بالحياة، ولكني بعت لأصل لحلمي وأصل إليك، اعتذر يا مريم حقًا اعتذر" .
أخرج عم يوسف أربعمائة جنيهًا من جيبه وقال ليوسف:
- هذا مقدم العمل بيننا ما زال العمل كثير وصدقني هؤلاء الكلاب ممكن ينشرون الشعر ويشترونه بالمال ويحققون أحلام زائفة مؤقتة، هم من سيكونون مغفلين في النهاية ليس أنت، هم أسوأ ممن يبيعون أسوأ بكثير .
-أنا لا يهمني شيء، لا يهمني سوى مريم وقد فعلت هذا لأجل أنا أعيش وأراها وأن أكون جوارها .
نظر إليه مستغربًا من كلمته الأخيرة ولم يفهم شيئًا:
- لا عليك يا عم شوقي القصة طويلة، أريد الآن حجرة لكي أجلس بها لو تقدر أن تساعدني .
-تعال معي وما يقدره الله خير لنا .
قد تعلم يوسف أن كل الطرق في سبيل التضحية من أجل الحب متاحة، كل شيء حتى الموت ففقدان مريم موت في حد ذاته، فهو الآن غير باقِ على شيء، لا شيء غير مريم ينتظر ولا شيء غير حضنها يرجو .
استقل تلك الغرفة التي جلبها إليه عم شوقي بإيجارها المتواضع، وقد كانت في الدور الأول مطلة على إحدى حواري مصر القديمة، ليس بها سوى سرير وطاولة وحمام

صغير بها، لم يرد يوسف أكثر من هذا، مجرد مأوى لكي يحميه من عبث الشوارع وبرودة الأزقة .
يفتح تلك الرواية التي أحضرها من غرفتها في ذلك اليوم المشؤوم، أراد أن يعرف تفاصيل أكثر عما دونته بها من تفاصيل مشتركة بينهما في حياتهما تلك، ففتح آخر فصولها، أراد أن يسرد سبب فراقهما، أراد أن يعرف تلك الحقيقة الغائبة عنه، وبدأ بالقراءة وقد امتلأ بكل أسباب الاشتياق الممزوج بالحيرة وأخذ يقرأ على لسانها .
"تركت يوسف وتركت معه العديد من الأسئلة التي أؤمن أنها حيرته بل قتلته، تركته بلا سابق وداع أو ربما لم يترك لنا القدر فرصة للوداع، أؤمن أنه سيقرأ يومًا هذا الكلام، فهو يعلم أن تلك الرواية قد جمعتنا وأنها أيضًا من فرقتنا فمنها وإليها عدنا، فهي له في النهاية .
فلتعلم يا يوسف أنك تركتني حين دخلت الإسلام وظننت أنني لن أسامحك، وكأنك قد ارتكبت جريمة في حق عقيدتك وأنى أخبرك الآن بأنك قد ارتكبت إثمًا في حق حبك لي وفى حق عهدك القديم بألا تتركني .
دخلت إلى الإسلام وأنت حر في خيارك، فما جرأك أن تظن أني لن أقبل بشاب مسلم وإن كنت نصرانية وأتبع دين المسيح، فالحب لا يعرف دينًا يا يوسف، الحب ذاته دين، لا يمكن أن نرتد عنه وإلا متنا .
هل تخيلت ألا يجتمع هلال قلبك مع صليب قلبي في سبيل الحب؟ هل ظننت يومًا بألا نجتمع في سبيل الحب وإن اختلفت عقائدنا؟ فهربت وتركتني وخلفت وراءك العهود والمواثيق القديمة .
وعندما عدت ورأيتني في إكليل ماجد، ذاك اللقاء الذي جمعنا صدفة وظننت أنني نسيتك حينها وكنت أحمق للمرة الثانية هل يعقل أن أنساك يا يوسف .
فلتعلم الآن حقيقة فراقي عنك للمرة الثانية حين دعوتك ولم آتي إليك، فلتعلم يا يوسف أن مرضي هو ما منعني عنك، فلقد أخبرني الأطباء أنني لن أعش سوى عام وبضع شهور، هل كنت ترضى أن أجتمع معك تلك المدة ومن ثم ينفطر قلبك بعدها، وتصبح ميتًا وأنت على قيد الحياة .
أظن أن أسباب رحيلي أقوى من سبب رحيلك القديم، أظن أن سبب رحيلي لم يكن إلا موعد للقاء في العالم الآخر في المساء يا يوسف سأراك .

ولتعلم أنني لم أحب غيرك طيلة عمري، وأن قلبي لم يدق لأحد غيرك، ولم تنتفض جوانحي لأحد بعدك، أنت وحدك يا يوسف من سخرت قلبي له أبد الدهر، وأنا الآن لا أعلم مصيري هل مت أم ما زلت أحيا أم أن مرضي قد جعلني مجرد جسد عارٍ بلا روح .

اذكرني يا يوسف ما دمت حيًا ولا تنساني ولا تجعل مني ذكرى مهملة، أحييني معك واذكرني في صلاواتك وأناشيدك، وحين تسقط الأمطار تخيلني في كل ليلة وفي كل سماء ولتحيا معي أبدًا .

هذا لم يكن آخر فصول الرواية بل هذه آخر نقطة توقفنا حينها يوم لقائنا فأنت من سيكتب نهاية تلك الرواية، أنت من ستؤيد تلك التفاصيل أنت من ستقرر، هل سنلتقي وتنتهي قصتنا في موعد اللقاء أم أن لسلطة القدر رأي آخر على قرارانا وعلى أمنيتنا الممنوعة من العرض وكأنها سراب أو خيال .

أحبك يا يوسف أحبك كثيرًا جدًا" .

يقرأ يوسف تلك الكلمات بعين دامعة وأخذ يقول في نفسه:

"لست وحدي من تركك يا مريم، وأنتِ وقد تركتيني بسبب مرضكِ، ومتى كان الحب يهجر لمرض أو لداء؟ ومتى كان الموت حاجزًا بين اثنين وقد جمعهما الحب تحت مظلته؟ كنت آمل أن أرتاح وأنا أقضي سنتك الأخيرة في الحياة بجواركِ، كنت أتمنى لو أنني قابلتك على أنك مريم، وليس سما حتى لا أكبح حبي لك ولكي لا يكبحني عهدي القديم لكِ، كل ثانية بجوارك وأنت مريضة أفضل من ألف عام دونك يا حبيبتي" .

أخذ ينظر إلى تلك الوردة حنين، يحاول أن يستنشق ما قد تبقى بها من عطر، لكنها قد ذبلت وقاربت على الانتهاء مثلها مثل مريم .

فقد علم حينها لم قطفتها مريم، ربما لتخبره بيوم وداعها الحياة ولتصبح ذكرى جميلة منها ذكرى دائمة له .

أخذ تلك الزهرة في حضنه ولجأ إلى النوم، وكأنه هروب مؤقت لهمومه وملجأ غير دائم لراحة مؤقتة .

نام نومًا عميقًا وكأنه لم يرد أن يستيقظ من نومه دون أن يراها، لكنه فتح جفنيه دون أن يراها لم يكن يتوقع قط أن تغيب عنه في منامه .

ألتلك الدرجه تعانده الأحلام هي الأخرى؟ فهو عجز عن لقائها في واقعه وأيضًا قد عجز عن رؤيتها في منامه هذا، وذلك أقسى أنواع الحرمان حين يفتقدك حلمك ما تحب ويصبح حلمك كواقعك دون أي اختلاف وبلا أي خيال، مما يتيح السعادة ولو ثوانٍ قليلة في عالم الأحلام .

فهو يتذكر الآن بداية قراءته لبيت المتنبي: "ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن" .

يذكر كم كان يمقت ذلك البيت ويعرض عنه، وكما كان ينعت المتنبي بصفات الضعف واليأس ويذكر كم الثورة التي كانت تنتابه عندما كان يقرأ ذلك البيت قديمًا وعن حماسة الشجعان التي ترسخت في بوادره من أجل الوصول لمقصده .

كم كان طفلًا ساذجًا تفيض من جوانحه عواصف الأمل ويرتسم على وجهه نفحات من التفاؤل يا لحماقته!

والآن وقد تيقن أن عالمنا وفجوته الزمنية قد تعدت حدود أحلامنا، ولربما أصبح الحلم في مفهومه الواقعي هو ذلك السراب المندرج تحت وطأة الانهزام، وأن الأحلام ليست بالضرورة أشياء قابلة للتحقيق ربما ستظل أحلامًا لا شيء أكثر .

فلم يبادله الحلم ما قد أكنه في قلبه من قداسة الحب وروعة الاعتناق، فهو الآن مفتقر للحب والمأوى ولثكنات الوطن .

ويرى أن الزوال هو الخيار الأوحد دون حياة، بلا حلم فطبع على جسده ذكريات من الآلام وماضي من الفقدان .

إلى أي درجة وقد تجسد الألم على هيئة يوسف بعد أن خذله الحلم!

فقد ظل هكذا قابعًا في حجرته بعد أن خذله حلمه وحرمه من رؤيتها حتى قطع خيالاته صوت دقات الباب .

انتفض لكونه وحيدًا فمن سيزوره في مثل هذا الوقت من الصباح الباكر وقد كان هذا الوقت من الصباح أو مثله من أواخر الليل هو للمقهورين فقط .

يفتح الباب إذا بصديقه القديم محسن لم يكن يتوقع قدومه بل لم يكن يتوقع لقاءه من الأساس .

انتفض إليه فهو في أمس الحاجة إليه، انتفض إلى حضنه كالطفل الذي وجد أمه بعد غياب أعوام، يشعر بالرهبة والخوف، يشعر بالقلق وحتمية الموت التي تحاصره .

لم يكن يحتاج وقتًا لكي يتذكره، بل منذ النظرة الأولى قد عرفه وظل يبكي في حضنه، فلقد كان بينهما تاريخ من الحياة والقصص التي عاشاها سويًا في حلقات الأرض .

- أين كنت يا محسن؟ طوال هذه الفترة تركتني وحدي، أنا كنت أموت فعليًا، أنا انتهيت .

وما أن رآه محسن على تلك الصورة حتى انفطر بالبكاء هو الآخر:

-الحمد لله أنك على ما يرام، لقد كنت أُقتل كل يوم دونك يا يوسف .

- أنت لا تعلم شيئًا يا محسن، مريم سوف تموت وتتركني بعدما أفنيت عمري كله أبحث عنها بعدما ظللت عمري كله أحبها وحدها .

- إذن فلتغسل وجهك ولتأتي معي، أريد أن أشبع منك وأن أعرف ماذا حدث؟

- صحيح كيف عرفت مكاني؟

- عم شوقي، رأيته عند المقهى وأخبرني كل شيء، الآن أريدك ألا تخاف ولا تقلق وأنت بجواري، هيا يا جو فلتأتي معي .

أخذه إلى بيته القديم في القاهرة، الذي قد كان يقطنه قبل أيام غيابه، أخذه وقد اجتمع شمل الصديقين من جديد، فأخذ يحكي له قصته طوال الطريق حتى وصلا إلى بيته القديم .

أخرج تلك المفاتيح من محفظته لم يكن يعلم قديما شيئًا عنها لكنه وقد تذكر الآن أنها لذلك الباب القديم .

قام بفتح الباب وقد أرهقه ذلك، فقد غاب عنه ما يزيد عن عام .

كل شيء بالداخل لم يتغير، كل شيء في موضعه، لم يتغير سوى طبقات الغبار التي غلفت منزله من الداخل .

- ألا تعرف سبب فقداني للذاكرة وسبب دخولي تلك المصحة؟

- لو كنت أعلم لكنت وصلت إليك، ولكنك اختفيت فجأة بلا أي مقدمات .

أخذ يقلب في الأشياء أمامه حتى وجد مجموعة صور قديم في صندوق خشبي، فقد كانت صوره مع مريم حين كانا صغارًا وقد وجد تلك الصورة التي رآها معها بالمشفى والآن علم أن هذه الصورة لهما الاثنين .

ينظر إليها وكأنه يتأمل في طيات الماضي، يتذكر كافة ملامحها منذ أن كانا صغارًا حتى التقى بها بلا موعد في تلك المصحة، ولم يكن يعلم أنها هي مريم .

يلعن نفسه لأنه لم يقدر أن يتعرف عليها، ولربما أراد القدر ذلك كي لا يصيبه بالقهر، ولكنه الآن وقد أصيب بكافة أنواع القهر في الحياة .
وبينما هو يقلب في تلك الأشياء القديمة حتى وجد علبة السجائر التي عليها صورتها، وقد أهدتها له في عيد ميلاده وأخذ يتذكر تفاصيل ذلك الموقف حينما كانا على شاطئ البحر يومًا .
- أغمض عينيك يا يوسف .
-حسنًا فعلت .
- لا أنت تكذب أنا أرى عينيك ما زالتا مفتوحتين .
ضحك يوسف وكأنها وقد اكتشفت حيلته:
-حسنًا والله قد أغلقتها الآن .
-افتح عينيك الآن .
- ما هذا؟
-هذه علبة سجائر نحاسية، وقد نحت صورتي عليها .
- وهل هناك حبيبة تجلب لحبيبها علبة سجائر في عيد ميلاده؟
- وماذا اصنع لك وأنا أعلم أنك مدمن وأنك تعتاد عليها كثير ولكي أضمن أنك ستراني باستمرار .
قبلها من رأسها:
-شكرًا يا مريم، رغم أنني لم أكن بحاجة إلى صورتك لكي أتذكركِ بجواري دائمًا فأنتِ تسكنين داخلي بالفعل .
أخذ العلبة ومسح الغبار من عليها بيده حتى وضحت صورتها وابتسم إليها، علم حينها قيمتها وعلم حينها أن تلك الهدية خلقت لتزيده صبرًا في عذابه هذا .
- هل أطلب منك شيئًا يا محسن؟
- اتفضل يا يوسف .
- هذا الكتاب والخطاب أريدك أن توصلهم إلى مريم .
- ولما أنا فلتفعل أنت .
-لن أستطيع أن أراها على حالتها تلك، فلتفعل أنت .
- حسنًا متى؟

- ستعلم حينها لا تخف .
التفت إلى ذلك الخاتم الذي أهدته إليه مريم ذات يوم وقد نحتت اسمها عليه لبسه في أصبعه ولم يكن يعلم أن مجيئه هنا ما هو إلا عودة لذكرياته وتفتيش في أوراق الماضي .
لم يكن يعلم أن مجيئه ها هنا سوف يزيده وجعًا وألمًا .
ذهب محسن وتركه في مأوى ذكرياته وحيدًا، ظل نائمًا على سريره ناظرًا إلى صورها، لم يفعل غير هذا بقية اليوم .
وكأنه أراد أن يرقد مع تلك الأشياء وأن يصبح ذكرى طيبة معهم .
ارتدى جاكت صوفي وأخذ يعدل من خاتمه ويتحسس تفاصيله لكي يزيده تشبعًا من الذكريات .
ينظر من الشرفة وقد حل المساء، علم حينها أن الوقت قد سنح له بالذهاب .
نزل من بيته هادئًا مطمئنًا حتى وصل إلى ذلك الجسر حيث التقى عنده بمريم يومًا من الأيام .
وقف على السور وقد أحس البرد الشديد لكنه لم يغنه شيئًا عما في عقله من أفكار .
وقف على السور والماء أسفله لا شيء يخيفه قط ولا شيء يرهبه هو الآن في قمة اللا مبالاة .
يتذكر قولها حين أخبرته يوم حينما كانا جالسان على سور السطح في بيتهما القديم .
- كيف تجلسين على السور بلا خوف؟ وأنا قد أصبحت أبله وقبلت بذلك .
- وهل كنت تريدني أجلس وحيدة؟
- لا قطعًا، فأنا أجلس لأجلك، ولكني كلما أنظر لأسفل أشعر أنني على وشك السقوط
ضحكت بصوت مرتفع:
- أتعرف أنني أتمنى أن أشعر بذلك الإحساس، إحساس السقوط في الهواء بدون أن يكتفك شيء، ذلك الإحساس بالحرية المطلقة .
ضحك وقال لها:
- ليست المشكلة في ذلك الشعور، لكن المصيبة الحقيقية تكم في اللا شعور الذي سيحدث بعد ذلك .
قامت من مكانها ووقفت على السور:

-لا تستفزني على فعلها .
انتفض خوفًا حينما رآها هكذا:
- انزلي يا مريم كفاكِ مزاحًا .
ضحكت وقالت:
-لن أنزل .
ارتفع هو الآخر على السور وقال:
- والله إن لم تنزلي لأرمين بنفسي من هنا .
أخذته في حضنها وسقطا كلاهما على السطح،
وهو أخذ ينظر في عينها ويقول:
- أتتخيلين ماذا كنتِ ستفعلين ايتها المجنونة؟
- أنت المجنون لو تخيلت أنني سأتركك تسقط .
أما الآن فأخذ ينظر إلى تيارات الماء بالأسفل وأخذ ينظر حوله فلم يجد إنسانًا واحدًا، هو كعادته وحيدًا حتى في ليلته الأخيرة أصبح وحيدًا،
يقول في نفسه:
- تلك المرة لن تستطيعي أن تمنعيني عن السقوط يا مريم،
ليس كل شيء في الحياة بسذاجتكِ تلك .
تقدم بقدمه نصف خطوة إلى الأمام وأخذ نفسًا عميقًا، يريد أن يجرب ذلك الشعور الذي أرادت مريم أن تحسه، لكنه سوف يغادر الحياة بعدها ويموت، ولن يقدر أن يخبرها بذلك الشعور .
يلقي نفسه وقد ترك وراءه كل شيء في الحياة حتى ذكرياته وقد تركها، لم يأخذ معه سوى خاتمها أراد أن يجاوره في عالمه الآخر .
وأخيرًا قد شعر بالراحة التي يبحث عنها، وشعر بالاطمئنان والإخلاص حتى وصل إلى الماء .
لكنه عادة ما تكتمل سعادته فقد ابتسم وأخرج وجهه من الماء ضاحكًا:
- لقد نسيت أنني قادر على السباحة، لقد نسيت ذلك .
ظل يضحك هكذا بتلك الضحكات الممزوجة بالبكاء وكأنه يبكي من الألم ويضحك من القهر .

فالدهر لم يتركه حتى في انتحاره، أراد أن يطبع عليه بعض آلامه، أراد أن يهبه فرصة للنجاة، لكنها بالنسبة إليه فرصة لموت جديد في الحياة .

ألتلك الدرجة وقد وصل به البؤس .

هل عندما يريد الإنسان الموت يجده سرابًا ويمنعه القدر منه، وكأن الموت حين يصبح أمنية لنا، فإن القدر يبخل علينا بتحقيقها، وقد يعطيها لأناس آخرين لا ذنب لهم بها، حتى يقهرنا ويميتنا ويجعلنا مدهوسين في أركان أحلامنا .

هل حلم الموت في كونه حلمًا بعيدًا عن صعقاته المفاجئة أصبح هو الآخر مستحيلًا لكونه مندرج تحت قائمة الأحلام؟ أم أن الدهر أراد أن يبقيه معه حائرًا في تلك الحياة الفاترة المميتة .

أخذ ينظر إلى السماء يتخيل وكأنه يراها، يؤمن أنها في تلك اللحظة تنظر معه إلى السماء، وأخذ يحدثها فلا أحد يسمعه لا جدران ولا فواصل لا شيء غير الفضاء .

" أيعجبكِ ذلك يا بحر الأحزان؟ لا أستطيع الغرق فيكِ ولا أستطيع أن أغرق في بحر آخر دونك" .

انتهى به المطاف مقهورًا كعادته، حتى في الموت انتهى به المطاف مغمور وراء الأحلام .

هي الأحلام تلك لم يكفيها ألا تحققها لكنها تدهسك حتى تكره اليوم التي تمنيت بتلك المعجزات تتمنى لو أنك مت قبل أن تحلم بحلم محال .

"اعتزل الحلم"

صباح جديد مظلم كغيره، لكنه استقبله مبتسمًا كعادته، يستمع إلى فيروز وقد ارتفع صوت المذياع، يطفئ الشعلة ويصب قهوته في فنجانه .

دائمًا أحبها قهوة سادة ذلك الطعم الأقرب إلى الواقع .

يفتح الشباك في تلك الغرفة الضيقة حتى يستقبل شعاع الشمس في كلتا عينيه فيبتسم .

يسمع صوت أسفل الشباك ينظر فإذا به أحد الأطفال هؤلاء ممن يدعونهم بأطفال الشوارع .

أبرياء هم في زي ملائكي لا يفقهون شيئًا في الحياة سوى الألم، قلوبهم أنقى من ورود الياسمين .

ينظر إليه وقد تبدلت ابتسامته عبوسًا وقد اعتاد ذلك دائمًا .

لم يقدر على مساعدته، لم يجد في يده سبيلًا لذلك فهو يريد من يساعده .

يتذكر مريم وكيف كانت تعمل مثل أولئك الأطفال وتعطيهم من طعامها وتهديهم أشياء قليلة وهي رائعة في نظرهم وقد تصيبهم بالذهول .

لم يستطع إلا أن يعطيه طعامًا لكي يفطر به وضعه بجانبه وأكمل طريقه إلى رحلته الصباحية .

لم يرد أن يقطن في بيته القديم، أراد أن يبتعد قليلًا عن ذلك العالم الذي يقتله باستمرار، لم يشأ أن يسكن قريبًا من الذكريات، أراد أن يبتعد قدر المستطاع .

التقى بصديقه محسن وقد انتظره قريبًا من حجرته تلك بسيارته، التي لم تكن سيارة في مفاهيم البعض إنما قد كانت أداة للتنقل بعيد عن نغمات الثراء

- صباح الخير يا يوسف، اركب .
- لا أصدق عيني، أما زلت سيارتك على قيد الحياة؟
- اللهم لا حسد، والنبي اتركها وشأنها، فهي من تقضي إلي حوائجي .

يدير "محرك" سيارته فإذا بها تعطلت .

-"فقرت" بها أيها النحس، انزل وادفعها إذن .

ضحك يوسف وقد تذكر أيامه الخوالي تلك، وكم مرة قد قام بدفع تلك السيارة وكم مرة قد عاش معها ذكريات لا يمكن تعديها .
وصلوا إلى المستشفى حيث قد اتفقا الليلة السابقة على الذهاب إليها لمعرفة بعض الأشياء القديمة ليوسف والتي لا يعرف إجابتها حتى الآن .
دخل المشفى وقد تذكر أيامه هنا، ربما لم تكن أيام سعيدة كما كان يتوقع، لا شيء غير مريم وقد أهدته الحياة في ذلك المكان المظلم .
يقول له صديقه محسن:
- انتظرني هنا سأدخل أولًا وأسأل عن أقدم من في المكان هنا .
انتظر يوسف وسط الحديقة ينظر إلى المرضى حوله، ويتذكر أنه قد كان واحدًا من هؤلاء، يراهم وقد عاش كل منهم في عالمه كل منفرد بأحلامه وكل قد اتخذ من الوحدة رفيقًا .
فالوحدة هي لغة العظماء وكل العظماء في عالمنا قد قُهروا ونالوا قدرًا من الألم الذي قد جعلهم على أساسه عظماء .
يلتفت حوله ولم يجد شيئًا مهمًا لكي يلتفت إليه، يرى أن المكان قد أصبح أشبه بالسجن ولكنه سجنًا مفتوحًا .
لم يجذبه إلا ذلك الرجل العجوز الذي قد قابله في هذا المكان، ذلك الرجل الذي قد واراه الزمن ودهسه ووضعه جانبًا ليبقى في ركن هذا السجن .
يقبل إليه وقد جاورته إحدى السيدات .
- كيف حالك يا والدي؟
-أتعرفني يا بني؟
ينظر إليه مبتسمًا،
وقد قدمت السيدة المجاورة له بالحديث:
- عذرًا يا بني، لكنه مريض ولا يتذكر أحد من الممكن أنه يعرف لكنه قد نسي ذلك .
- أعلم حالته جيدًا، لقد كنت مثله في يوم ما وما زلت قليلًا جدًا، ولكني أتساءل كيف عرفكِ وأنا طوال حديثي معه لم يكن يعلم غير فريدة .
نظرت إليه مبتسمة:
- أنا فريدة .

ابتسم وقد أصابه الذهول:
-أتمزحين؟
ظل مذهولًا لدقائق ثم تركهما وذهب مكانه، أراد ألا يقتطع حديثها أو أن يكون فاصلًا في عودة ذكرياتهما فقط، أراد أن يراقبهما من بعيد،
فبعد تلك المدة من السنين حتى دهسه الدهر والآن وقد وجد تلك السيدة التي كان يبحث عنها الآن وقد وجد حبه،
ربما أعطاه ذلك المشهد شيئًا من الأمل لكنه أمل غير مجد، فما فائدة الأمل وإن اتضحت معالم القدر بالانتهاء والزوال فحينها لا يصبح أملًا بل يكون مجرد هفوة مبتسمة في محافل الذكريات .
يتأمل العجوز ينظر في تشققات جبينه وقد وجدها وقد امتلأت شوقًا في سابق عهدها، أما الآن فينظر إلى وجهه فقد تبدلت ملامح الشوق إلى سعادة فقد تحقق حلمه وإن بلغ من العمر عتيًا .
ينظر إليه وقد رأى أن الحلم قد تصور على شاكلته، فهو رفض أن يموت دون أن يحقق ولو ربع حلمه، فقد ظل يبحث عن فريدة وقد تزاحمت أفكاره مع الثورات القديمة، وقد كبر سنه حتى أكل النسيان عقله لكنه لم ينسها .
أخذ ينظر إليه وقد كانا يتبادلان الابتسامة هو بزي المصحة الأبيض بشعره المماثل لذلك اللون وتجاعيده المنتهية .
وهي أيضًا كبيرة في سنها ويملؤها التجاعيد والأعوام وشعرها أبيض، كلاهما قد أصابهما المرض .
لكن البحث عن الحب لا يمنعه الزمن ولا يصيبه العمر مثقال ذرة ولا يبلغ المرض منه ولو سنتيميتر واحد، فالحب لا يعلم المستحيل الحب نفسه مستحيل .
ينادي عليه محسن من بعيد فأقبل إليه وأخذه معه إلى رجل عجوز يعمل قهوجي في مطعم المشفى .
- هذا عم إسحاق يا يوسف، أقدم واحد هنا بالمصحة ويعرف كل الخبايا هنا وكل شيء يمر أمام أذنه،
وهذا يوسف يا عم إسحاق، من أخبرتك عنه للتو .
- كيف حالك يا يوسف؟

لقد أخبرتك يا محسن ما أعرفه عنه، فأنا مخي ليس دفتر لحفظ كافة الأشياء، لقد أتى إلى هنا منذ عام إثر حادث سيارة وتحقيق الحادث قد حُفظ في النيابة، اذهب إلى القسم وأخرجه وستعلم كل شيء .
رد عليه يوسف منتفضًا:
- أرجوك يا والدي تذكر أي شيء، فالقسم لن يعرف أشياء أكثر مما تعرفها أنت .
- صدقني لقد أخبرتك بكل ما أعلم .
رد عليه محسن:
- وسائق السيارة هل سُجن أم هرب؟
- وكيف يُسجن يا بني، فصاحبك هذا هو السبب في كل شيء، فقد كان سكرانًا وهل ستحمي الحكومة الثملة وتسجن سائق فقير لا دخل له في شيء .
نظر له يوسف وكأنه كان يريد أن يلكمه في وجهه:
-إذن لماذا لم تخبرني من البداية أنني قد كنت ثملًا؟
-لم أكن أعلم أنها معلومة مهمة بالنسبة إليك .
- يا والدي تلك المعلومة هي أغلى من حياتي الآن .
- حسنًا أنا لست متفرغ لكما أعطني أجري لكي أذهب .
أخرج محسن من جيبه ورقة بخمسين جنيهًا وأعطاها له .
- وماذا تعمل تلك الورقة في هذا الزمان؟
- عندك حق وماذا ستفعل بالفعل؟ فلينتصر أحد منا على الدهر الآن، إما أنا أو أنت إما أن أعطيك مائة جنيه وتنتصر أو خمسين جنيه ونتعادل، وأنا لا أريد أن أكسب الدهر ولو نصف جنيه مبروك عليك الانتصار يا حاج .
ضحك يوسف وهمس لمحسن:
-حاج؟ اسمه إسحاق إنه مسيحي .
- لكنه لم يعترض يا يوسف، فتلك التقاليد عندنا في مصر، أي رجل كبير يُطلق عليه حاجًا وإن كان يهوديًا حتى .
نظر يوسف إلى عم إسحاق مبتسمًا:
-سلام يا حاج إسحاق .
- مع السلامة يا بني إذا أردتما شيئًا آخر فل . . . .

لم ينتظراه حتى يكمل حديثه حتى انطلقا الاثنان من مكانهما وكل يعلم وجهتهما .
-هل تأخذني الآن لذلك الملهى الليلي حيث كنت أسهر سابقًا؟
ضحك إليه محسن:
- يا يوسف نحن لم نذهب لذلك المكان سوى مرتين أو أكثر، أنت لم تكن تثمل في حياتك إطلاقًا وحين سكرت اصطدمت بك سيارة وكادت أن تودي بحياتك وفقدت ذاكرتك وأنت لا تجد لقمة العيش لتسهر في تلك الأماكن الفارهة .
- صحيح أنا لم أحب الخمر في حياتي وكنت مقتنع دائمًا أنها مهرب مؤقت ولا يجدي نفعًا، حتى عندما تُفيق من تأثيرها يزداد وجعك إلى الضعف ولا يكن كسابقه عند بدايته .
وصلا إلى ذلك الملهى الليلي وكان مغلقًا، فالشياطين لا تظهر بالصباح هي تخرج من وقورها ليلًا فقط .
ينظر إلى ذلك المكان يتمعن النظر ويعيد عليه الشريط إلى الوراء عله يتذكر ما قد فات .
ينظر إلى الأركان يحاول أن يجد طرفًا لخيط الماضي حتى يستطيع أن يجول في أحداثه ويتذكر تفاصيله ويستنتج أمكنة الألم .
يطرق قليلًا وتظهر على وجهه ملامح غير مفهومة لكنها معتادة على الظهور في أركان ملامحه، فلم يظهر غيرها على وجهه مذ عاد للحياة، فهي تلك الملامح المائلة إلى الحزن والقلق ويشوبها لحظات استنكار من الواقع .
ينظر إلى صديقه محسن فجأة بعين منكسرة:
-لماذا فعلت ذلك بي يا محسن؟
انتفض محسن وبدت على وجهه ملامح القهر:
- فعلت ذلك كي أريحك يا يوسف، لكي تعيش لم أكن أعلم أن القدر يلاحقك ولن يتركك وقد كتب لك الهم والقهر طوال حياتك .
- لقد قتلتني .
- أنت بالتأكيد ميت يا يوسف من الحسرة، أتريدني أن أتركك تتعذب قبلها أم تموت مرة واحدة بلا ألم؟
- مريم من أخبرتك أن تفعل ذلك؟

- يا يوسف، ليس علينا ذنب سواء أنا أو مريم، لقد أخبرتني أن أكذب عليك وأخبرك أنها ماتت لأنها مريضة ولم يتبق لها سوى عام أو يزيد وتذهب بلا رجعة إلى العالم الآخر، أخبرتني أن أكذب عليك كي أريحك ولا أشعرك بألم فراقها لاحقًا ولكي لا تنساها وفي ذلك الوقت كانت علاقتكما شبه ....

لم يدعه يوسف أن يكمل حديثه بل تركه وغادر، تركه وقد تذكر أنه كذب عليه لكي يريحه في حياته، لكن كذبته قد أماتته فعلًا .

يتذكر الآن مشهد انتحاره بعد أن أخبره محسن أن مريم قد ماتت، وأنه لم يتحمل هذا الخبر وذهب وشرب حد السكر لكي ينسى، وبالفعل قد نسي لا بتأثير الخمر إنما بتأثير الألم، نسي كل شيء إلا مريم .

ذهب إلى تلك المقهى القديمة، ذهب إليها لكي يضع بعضًا من أعبائه، جلس ليشرب بعضًا من القهوة، أراد ألا ينام تلك الليلة، يخشى ألا يراها في حلمه فيقتل مرة ثانية .

كذبت عليه مريم حينما أخبرت محسن أن يقول لها أنها ماتت، وأيضًا قد كذب عليها يوسف حين أخبرها أنه لن يحب غيرها وقد أحب سما .

هو الآن في حيرة من أمره هل سوف تكون له الحياة منجاة أم أنها موت حتمي لا مفر منه .

ينظر حوله وقد اجتمع المقهورون في وقتهم الأمثل في المساء يجلسون على المقهى وكل تائه في عالمه .

هو الآن جالس لكنه لا يأبه لشيء، أحب ذلك الإحساس من اللا مبالاة ربما لم يكن إحساس هو شيء أشبه باللا شعور .

لم يقطع إحساسه باللا إحساس إلا صوت "البوكس" وقد انقض على المقهى وبدأ في أن يلتقط ما عليها من شعراء .

أما هو فلم يدرك الأمر ولم يشعر بشيء إلا بعد أن التقطه أحد الضباط مع غيره من الكتاب .

ينظر حوله في حال من اللا مبالاة مبتسمًا، حتى لم يتساءل لماذا أخذ أو إلى أين سوف يؤخذ، ربما قد أحب ذلك أحب ألا يشعر بالوحدة وأن يكون وسط أنس من الأصدقاء .

ينظر إلى من حوله ممن ضاقت عليه عربة الشرطة لا أحد يبكي لا أحد ظهر على

وجهه ملامح الخوف، ربما الكثير منهم قد اعتاد ذلك، ولربما لم يملكون شيئًا يخشون فراقه، ربما يخشون هول الحياة فقط وقد أصبحوا سعداء الآن حين انفصلوا عن الواقع .
وصلوا القسم وأُلقي بهم جميعًا على أرضية السجن حتى صديقنا يوسف أُلقي به وقد وجد السعادة رغمًا عن كل ذلك .
ينظر إلى اثنين بجواره وقد تحادثان بصوت هامس:
- هذا جزاء تلك القصائد السياسية التي ألقتنا بالهاوية، وما علاقتنا بالسياسة لولا المال؟
- وهل يفرق أكل العيش بين سياسة أو حب، المهم أن نعيش .
- لكن لم يكن هدفنا أن نعيش ها هنا بذلك السجن .
- وهل هناك فرق بين هذا السجن والسجن بالخارج، أظن أن هذا السجن أجمل، فنحن نأكل ونشرب وننام بلا نفقات .
- ألا تسمع صوت أم كلثوم في هذا المذياع .
ثم أكمل بصوتٍ عالٍ:
-سلمت يد من شغَّل أغنية الست .
- أتعرف أجمل شيء في تلك الليلة؟
- ما هو يا صديقي .
- أننا وقد أُخذنا من المقهى قبل أن ندفع الحساب، وفى النهاية تجحد على نعمة السجن أيها الزنديق .
يستمع إليهما يوسف ويسترق السمع لحديثهما مبتسمًا .
لم يقطع استماعه شيئًا إلا نغزة باليد من الخلف، في البداية تجاهلها يعلم أنه لا يعرفه أحد هنا، ولا يعرف هو الآخر أحد هنا حتى بدأ بالنداء:
- يوسف .
نظر وراءه مندهشًا فإذا به صديقه فرغلي، وما أن رآه فرغلي حتى ضحك بصوت مرتفع حتى قتله الضحك:
- ألم نتفق أن نلتقي على المقهى عند سيدنا الحسين؟ ما الذي أتى بك إلى هنا يا يوسف؟

ضحك يوسف حتى قتل من الضحك هو الآخر:
- لقد كنت على المقهى لكني لم أجدك، وأنت تعلم قدرنا رحيم دائمًا بنا وقد جعلنا نلتقي ها هنا .
- لكننا لم نظلم ولم نسرق ونرضى بحالنا قدر طاقتنا، حتى حينما حاولت أن أطمح في مجرد كلمة طموح، وسافرت للخارج جلبوني هنا وألقوني ولا أعلم ماذا يشعرون حين يلقون بي في هذا السجن؟ لقد كنت أعمل بالخارج وأحصل على دخل ثابت وأشعر بالراحة، ولكن أحلامنا قد كُتب عليها الزوال .
- نحن أفضل ممن في الخارج في شيء واحد فقط، العزلة،
العزلة هي أفضل الأشياء المكتسبة من الحياة على الأقل وقد تيقنت أن الاغنياء الذين ينهبون البلد وينهبوننا مجرد حثالة نسبة إلى الأدباء أمثالنا .
ضحك فرغلي بشدة:
- أدباء! نحن لم يضيعنا إلا كلمة أدباء، سأخبرك نصيحة يا يوسف لأننا من الممكن أن نفترق هنا بالسجن، والدهر سيصبح حاجز بيننا ولحظة الأنس تلك لن ننالها مرة أخرى،
إياك أن تسعى وراء حلمك يا يوسف، كفاك سعيًا، اعتزل الدنيا ولتذهب إلى شرم الشيخ، اعمل وتمتع هناك واترك الشعر والألم، اعتزل الحلم يا يوسف ورحمة أمك اعتزله .
- أتعرف لو أنك لست صديقي لكنت قد تركتك وذهبت الآن، وماذا سيحدث إذا اعتزلت الحلم سأموت مثلًا وماذا أنا الآن أمامك؟ هل تراني أمكث في قصر وأرتدى بدلة وادخن سيجارة أمريكية ثمنها أغلى من ثمني وثمنك،
وماذا لنا غير أحلامنا؟
لم يقطع أنسهما وينهي حديثهما إلا صوت السجان وهو ينادي:
- يوسف عبد المسيح .
نظر إليه فرغلى بعين منكسرة:
- حان دورك يا يوسف، أرني كيف ستحقق حلمك ،
إن عدت إلى هنا فاعلم أنك في خطر، أما إذا ذهبوا بك إلى حجرة أخرى فاعلم أنك في مهب الموت .

ذهب يوسف لم يكن خائفًا ولم يكن جبانًا، فلم يخلق لمثل تلك التفاهات لا يعنيه شيئًا عن الألم بل لم يعد يخاف الألم وقد أصبح ذلك المصطلح المعتاد على حياته لفظًا مبتزلًا عاديًا لا يؤثر عليه إطلاقًا .

بل سار مبتسمًا رافعًا رأسه وكأنه ذاهب لموعد غرامي أو أنه ذاهب لكي يتسلم جائزة شعرية أو أنه ذاهب للموت بكلتا قدميه، حتى ادخلوه تلك الغرفة المظلمة وأُغلق الباب .

لم يكن يكترث لشيء في حياته قط، لأنه يؤمن أنه لا يحيا، هو في مرحلة لا يدركها بين الحياة والموت، مرحلة الفقدان ليصبح تائه في متاهات دنيته .

انتهى الآن من موعده، لم يقلقه سوى شيء واحد فقط، أنه لم يعد إلى زنزانة فرغلي وألقوه في زنزانة مستقلة بها رجل عملاق أجش لم يكن سواهما بها في وحشة الظلام .

يختلس يوسف من ذلك العملاق بعض النظرات ينتفض من هيئته ومن وجهه المرعب .

تعمد أن يبقى ناظرًا إلى الأرض، فلم يتحمل أن يلتقي بنظراته مع ذلك الغريب المخيف حتى تحدث إليه ذلك الرجل وسأله:

-أقتلت أحدًا؟

تعجب يوسف من سؤاله وتعمد ألا يجيبه إلا وهو ناظر إلى الأرض:

-لا لم أقتل أحد .

- إذن ماذا اقترفت لكي تودع معي في تلك الزنزانة، فلا يدخل بها أحد إلا ويعلم أنه لن يعود للشارع مرة أخرى وأنه سيذهب بالتأكيد إلى بارئه .

ابتسم يوسف وكأنه وجد في كلامه منجيًا من تلك الحياة التي سئمها:

- والله لم أقترف إثمًا قط، ربما إثمي الوحيد هو أنني قد أردت الحياة في سلام .

ضحك ذلك العملاق حتى بكى وبلل وجهه بالدموع:

- إذن أنت مثلي .

تعجب يوسف من تشبيه هذا المجرم به:

-كيف؟

- أنت فقير مثلي بلا ظهر أو سند أو ربما أنت ضائع وجلبوك هنا .

رأى يوسف في بكائه شيئًا من الانكسار، لم يكن ليتعرف عليه أحد سوى المقهورين

أمثال يوسف، يشعر أن هذا الرجل صادق وأن هيئته لا تنم على أفعاله قط، يرى أن في داخله نقاء ورأى في دموعه طيبة الأطفال .

- وأنت ما الذي جلبك إلى هنا؟

- القصة طويلة جدًا لكن ملخصها أن صاحب المصنع الذي كنت أعمل به قد ارتكب ابنه جريمة قتل لأحد العمال ولم يجدوا غيري كي يلبسوه تلك التهمة، فهيئتي ومنظري وكل شيء مطابق للمواصفات،

سلبوا مني حياتي مبكرًا ولا بديل عن الإعدام في مثل تلك القضايا،

قد كنت بمثابة كبش الفداء فمن سيفعلها غير ذلك العملاق الأسود .

-ألم يكن هناك شهود لك؟

- شهود لي؟ أنا؟ لقد شهد الجميع زورًا ضدي الكل أجمع أنني القاتل حتى أصدقائي، الجميع قد أشبعوا ضمائرهم بالمال،

وماذا غير المال في عالمنا قد يستطيع أن يتحكم في زمام العالم .

شعر يوسف بالضيق والاختناق، لم يكن يتصور أن تتبدل الصداقة بالمال وأن تموت الضمائر هكذا فجأة من أجل النقود،

وأكمل العملاق حديثه:

- والله لا أخشى على نفسي ولا على حياتي، ولكن ابنتي لم تتعد السنتين وزوجتي قد أرهقها المرض، فلمن أترك ذلك الحمل خلفي؟ ومن يسدد الوعود التي وعدتها لابنتي ولم أستطع تحقيقها بعد؟ من سيجلب إليها تلك الألعاب الفارهة الباهظة، ربما أجد في ذلك الأمر مهربًا لي من تلك الوعود التي لو عشت قرونًا لن أستطيع تحقيقها، ولكننى أيضًا أشعر بالحزن لا لرحيلي ولكن لحزنهما عليَّ .

لم يستطع يوسف أن يكمل حديثه، فقد انتابه الألم من كل جانب، ألم نفسي، وألم معنوي وكل شيء حوله محترق بنيران الألم، رد عليه بصوت هادئ وقد وجد صعوبة في الحديث:

- بالله عليك توقف لا تشاركني ألمك فقد امتلأت أنا الآخر .

نظر إليه العملاق بعين دامعة:

- أتعلم أنك أول شخص أحدثه منذ مجيئي هنا، فمنذ أن ظُلمت ولم أتحدث وأشعر أن هذا الكلام خنقني، أردت أن أصيح بأعلى صوت أنني مظلوم لكن كل الأدلة

ضدي وكل القوانين تثبت أن هيئتي هي الآثمة .
أعتذر أني قد أطلت الحديث معك في حالتك تلك، ولكنك لا تعلم عن كم الراحة التي أشعر به الآن .
ينظر إليه يوسف وقد انتزع قلادته وأخذ ينظر إلى صورة ابنته الصغيرة ويتفوه بكلام غير مسموع وقد علم أنه يخاطبها ويوجه لها وداعًا خاصًا،
حتى قاطعه العملاق قائلًا:
- هل للموت من ألم؟
نظر إليه يوسف متعجبًا:
- لم أجرب ولكننى أؤمن أنه أقل ألمًا من عالمنا .
- أخاف أن يكون الموت شنقًا مؤلمًا هو الآخر، أريد أن أموت في سلام فقط، أموت موتًا هنيئًا .
-هل استسلمت لتلك الدرجة، فلربما العدل يخرجك من مأزقك هذا .
- العدل؟ وما هو العدل في نظرك؟
كلنا ظالمون الجميع وحتى أنا ظالم مستبد،
هل ترى أنه من العدل أن أترك طفلة صغيرة بلا أب وأذهب إلى الموت؟
هل من العدل أن أترك زوجتي المريضة في فراشها وأذهب؟
هل من العدل وأن أعيش حياتي فقيرًا مسلوب الكرامة؟
وأخيرًا،
هل من العدل ألا أموت على فراشي في سلام، وأن أشعر بالألم حتى في الموت؟
-كلامك كله صحيح، ولكن تعريف العدل في نظري يختلف عنك كليًا، فالعدل في نظري هو أن تترك عالمك وأشخاصه الجائرون وتذهب بلا عودة إلى السماء حيث العدالة الحقيقية .
- ربما في كلامك بعض الراحة ولكنني أخاف الألم، أخاف أن يجاورني في موتي أيضًا، أنا لم أرتضي بالموت حتى أتألم لقد ارتضيت بالموت حتى أهنأ بالراحة الأبدية .
لم يجبه يوسف فقد دخل في نوم عميق، لم يكن يقدره ربما أُهدي ببعض من الراحة المؤقته فقط .

«البداية»

حل الصباح عليه، ينزوي في أحد أركان السجن، ينظر وإذا به لم يجد ذلك العملاق الذي وجده ليلة أمس، وجد نفسه وحيدًا ووجد قلادته وقد علقها أعلى الشباك وقد كانت أشعة الشمس تضرب في صورة ابنته، فتعطيها بريقًا ولمعانًا .

أخذ يتساءل في نفسه فهو وإن ذهب إلى الموت بقدميه لماذا لم يأخذ قلادته معه؟ لكنه اقتنع أنه يخاف الألم ولربما لرؤية ابنته قبل موته ألمًا في حد ذاته، فهو لا يريد أن يشعر بألم فراقها أو أن يتخيل حزنها عليه .

وفجأة دخل عليه السجان وأخذه إلى زنزانة فرغلي، فعلم حينها أنه في خطر مؤقت بعيدًا عن أهوال الموت .

استند برأسه على قدم صديقه فرغلي وقد كان ما زال نائمًا .

استيقظ فرغلي على ابتسامته المعتادة ابتسامة إلى الدنيا وإلى الحلم الذي قد غاب .

- حمد لله على سلامتك يا يوسف .

نظر إليه يوسف مبتسمًا ولم يقدر على الحديث،

يدخل عليهم السجان وقد قال بصوتٍ عالٍ:

- تلك الأسماء تحضِّر نفسها لكي تُجري تصريحات خروجها .

ثم أخذ ينادي على قرابة ثمانية أسماء أو يزيد ويؤمن يوسف أنه سيكون من بينهم، فلم يضر أحد، ولم يظلم أحد، يؤمن أنه سيخرج إلى سجنه الحقيقي، ولكن السجان لم يذكر اسمه حتى غادر من مكانه ثم عاد أدراجه مرة أخرى وقال:

- ويوسف عبد المسيح، لقد نسيته، يجهز نفسه هو الآخر .

لم يشعر بالسعادة ربما شعر بالحزن على فراق صديقه فرغلي حتى نظر إليه صديقه:

- أبشر يا يوسف فقد أتى فرجك .

- والله لا يهون عليَّ فراقك، فأنا لا أعرف أحد بالخارج .

أخذه في حضنه لربما كان الحضن الأخير لهما .

- لا تقلق عليَّ فأنا كالقط بسبعة أرواح، وكما وعدتك سابقًا أعدك الآن أيضًا أننا

سنلتقي بالخارج عند سيدنا الحسين عما قريب .
قام يوسف من مكانه وعدل هيأته منتظرًا إذن الخروج حتى أتى السجان ومعه إذن خروجهم .
نظر إليه فرغلى مبتسمًا وكأنه يداوي ما قد حدث له من أسى لم يتوقع، فبادله يوسف بابتسامة عافر على إخراجها ثم قال له فرغلي قبل أن يخرج:
- يوسف، اعتزل الحلم .
هز رأسه بانكسار وكأنه مرغم على أن يجيبه بالموافقة، فلا قدرة له على المعافرة أكثر من هذا، فلا قدرة لديه لكي يجول في ساحات الحلم .
خرج من بوابة السجن ووجد صديقه محسن ينتظره في سيارته المنتهية هي الأخرى, أخذ يلوح له محسن بيده حتى أقبل إليه يوسف:
- ماذا تنتظر اركب يا يوسف؟
أطرق يوسف .
- هل ستظل مطرقًا هكذا؟ اركب واشكرني أنني أخرجتك من هنا .
ضحك يوسف إليه:
- هل أنت من أخرجني؟ هل الهموم كلها تأتي من ناحيتك؟
ركب يوسف ونام على كتف صديقه فهو لم يغضب منه، فما زال محسن ركنًا من أركان حياته .
- المشكلة يا يوسف أن تعريفي عن الراحة مختلف تمامًا عن تعريفك له، من الممكن أنني أصنع لك أشياء تثير غضبك وتكرهها لكنني أريد لك الراحة وأريد أن أساعدك يا صديقي .
- أعلم ذلك أيها الأبله ولكن القدر يعاندني ليس أنت لا تقلق،
ألن تخبرني كيف أخرجتني من هنا؟
-لقد أخرجت تصريح من المصحة النفسية التي كنت بها، فأخرجوك سريعًا
-أريد أن أخبرك بشيء لكنني متردد، وكما قلت لا يأتي من وراءي غير الهم .
- لم يعد يهمني شيء يا محسن
-سيؤثر يا يوسف صدقني، وهل لك غير مريم بالحياة؟
انتفض وقام عن كتفه:

- مريم؟
- نعم لقد رأيتها بالمشفى ليلة أمس، ولكني لم أتحمل رؤيتها ولم أقدر على مخاطبتها لأني أعلم أنها قد نسيتني .
صمت قليلًا وقد أصابته الحيرة فقد اشتاق لها وأيضًا لا يريد لها مزيدًا من الألم .
- لماذا تصمت؟
- لأنه ليس بيدي شيء لفعله، أنا عاجز، لقد أخبرتك سابقًا أن لقاءنا لن يجدي إلا بالألم لي، فمن الأفضل أن نظل على مسافة بيننا،
وأمانتي أريدك أن ترسلها لها غدًا في الصباح لا تنس .
- حسنًا كما تحب .
-والآن أريدك أن تأخذني لبيتي القديم، أريد أن أبات ليلتي هناك .
أراد أن يقضي ليلته الأخيرة في بيته القديم، أراد أن يودعه ويتحلى بالقليل من الذكريات قبل أن يذهب ويصبح ذكرى معهم .
وصل بيته القديم وظل جالسًا على سريره في حلقات صمت حتى وضع قراره الأخير وحل المساء .
ارتدى جاكته الصوف فلا غنى عنه في هذا الجو البارد، ولربما لا يملك غيره، يرتدي خاتمه ذلك الذي أهدته إياه مريم، يلبس كوفيته ونظارته وسرح شعره ووضع قليلًا من العطر، أراد أن يصبح مهندمًا على أفضل هيئة لأنه على بعد خطوات من لقائه بها .
وصل إلى المشفى وقد دخل بأرجل مترددة، أرجل ما بين الشوق والحيرة ما بين الألم والألم فلا فرار من تلك الكلمة .
دخل وظل يحدق في الأجواء حوله ويمعن النظر حتى وجدها في الحديقة وجدها جالسة على كرسيها المتحرك وحدها فقد اعتادت الوحدة واعتادها هو الآخر .
أقبل عليها بلا سابق سلام، أقبل عليها ووقف أمامها وأخذ يحدق في ملامحها، تجلس أمامه مرتدية جاكت صوفي أحمر كان يحب ذلك اللون عليها، أخذ ينظر إليها ويتمتع بالنظر إليها أما هي فقد ظلت صامتة متعجبة منه .
الصمت في لحظة اللقاء أبلغ كثيرًا من الحديث الذي ينتقص من روعة الأمر ويضيف طابعًا من الفتور غير المجدي في ذلك الموقف .

أراد أن يحتضنها لكنه لم يستطع فهي لا تتذكره وغالبًا لا تعرفه، أراد أن يمسكها من يديها ويرقصا سويًا مرة أخرى، ولكن هيهات، أراد أن يخبرها أنه يعشقها ولكن كل شيء قد أصبح حائلًا بينه وبينها كل شيء قد أصبح محالًا .
يرى أن قدره قد من عليه مذ أن أهداه مريم من البداية ولا يقنط أبدًا حتى ولو كان قدره أيضًا حرمه منها فحرمان القدر منها لا يستدعي أن ينساها، فهي باقية دائمًا معه وستخلد أبد الدهر في ذاكرته ما دام حيًا وحتى بعد الممات .
فقد اتخذت مريم جزءًا من تكوينه وتفصيلة من ملامحه لا يمكن تركها إلى طي النسيان، ولا يمكن جعلها حقبة من الفناء، فإما الزوال سويًا وإما البقاء معًا .
ذهب إلى بوابة المشفى وهو على بعد أمتار من توديعها ومن الذهاب إلى اللا نهاية .
ينظر إليها من بعيد وهي الأخرى تنظر إليه، ابتسم لها ابتسامته الأخيرة وهي الأخرى لم تبخل عليه بها بادلته بابتسامة حقيقية، تلك التي تخرج من رحيق المشاعر، تلك الابتسامة التي حفظها وعشقها .
ابتسم لها ونظر إليها نظرته الأخيرة وكأنه يقول لها أنه لن ينساها أبدًا، يقول لها أنها زهرته الأبدية وبعدها عنه لن يكون حائلًا بينهما، فهي بالتأكيد معه في كل اللحظات، يريد أن يخبرها أنه بها وقد اكتفى من الحياة لا يريد سواها ولا يريد غيرها مريم فقط .
ذهب وقد كان في انتظار الأمطار وهل منا من ينتظر الأمطار؟
الأمطار عنده هي الحياة وهي الرسالة بعد كل حياة فهو يتحدث بلغة الأمطار يشكو إليها وتشكو له .
أخذ القطار في تلك الساعة المتأخرة من الليل حتى وصل في نصف الليل، أراد أن تكون نهايته هناك في الأسكندرية حيث كان اللقاء الأول، أراد أن يصبح الوداع هناك في مكان اللقاء، أراد ألا يبتعد عن موطن الذكريات .
مر على أحد محلات الورود أخرج من جيبه ما تبقى له من مال واشترى باقة من الورود البنفسجية وقد كانت المرة الأولى التي يشتريها بها، أراد أن يعطيها لها ولكنه عاجز الآن .
نظر إليه الرجل حتى يعطيه الباقي من المال فتركه يوسف وذهب إلى شاطئ البحر .
ينظر إلى البحر الأزرق الممتد، يستنشق نسماته وكأنه الآن أمام نهايته، وكأنه واقف

أمام الأبدية اللا منتهية من الحب .
حب السماء والبحر ومريم .
يخرج تلك الأقراص وأخذها كلها، أي أنه قد أخذ الجرعة الكاملة لتذهب به بلا عودة، لتذهب به إلى ما وراء الذكريات .
ينظر في ساعته ولم يتبق له إلا خمس دقائق على الرحيل، نظر إلى السماء وأخرج العلبة الحديدية تلك التي أهدتها له مريم قديمًا، أخذ ينظر في صورتها مبتسمًا ثم أخرج السيجارة الأخيرة التي بها وأشعلها .
بدأ يظهر عليه تأثير الدواء فجلس، أراد بعض من الراحة التي لم يحصل عليها في الحياة، أراد أن ينال ولو قليل منها عند الوداع، أراد أن يعتزل الحلم أخيرًا، أراد أن يعتزل الحياة .
وضع الزهور بجانبه حتى قاربت سيجارته على الانتهاء وأخذ ينظر إلى السماء فوقه سوداء عاتمة لم يتخللها سوى أطياف النجوم .
أخذ يدقق النظر في السماء حتى وجد نجم الشمال وأخيرا قد تعرف عليه .
ابتسم وقد كان يعاني في البحث عنه، الآن قد علم وجهته، الآن لم يعد تائهًا كسابق عهده، الآن قد استدل على طريقه إلى الحياة وتعرف على طريقه إلى مريم .
نام على رمال الشاطئ وألقى نظرته الأخيرة على ساعته تلك، التي لا يعلم ماهيتها غير أنها ستحدد وقت رحيله، لم يكن يريد أن يعرف وقت الرحيل، أراد أن يعرف كم تبقى على الرحيل .
ألقى نظرته الأخيرة على نجم الشمال ومن ثم أغلق عينيه وقد تجهز لكي يلقى مريم مساءً، ربما لم يكن لقاءهما هنا في الحياة ولكن مهما اختلف المكان سيصبح اللقاء واحدًا، وسيصبح الحب هو الفرض الوحيد في احتماليات الوجود .
أغمض عينيه حتى شعر براحة لم ينلها في عالمه .
أغمض عينيه حتى وجد اللون الأسود وقد شاب حياته وأحلامه وخياله، أغمض عينيه وقد انزوى بعيدًا عن الخيال .
أما مريم على الجانب الآخر من الحياة والواقع كانت جالسة بتلك الشرفة حيث التقت بيوسف أول مرة في تلك المشفى .
كانت جالسة على كرسيها الذي لن تفارقه، أخذت تنظر إلى السماء في نهارها الجديد

وقد أشرقت الشمس وغمرتها بضوئها الفريد .
وقد وصلت تلك الأمانة من يوسف إليها، فأخذت تنظر إلى تلك الرواية وتتفقد صفحاتها ومن ثم فتحت الخطاب الذي أرسله وبدأت في القراءة .
" إلى مريم، حبٌ إليكِ،
أما بعد،
إذا كنتِ تقرأين هذا الخطاب، فاعلمي يا حبيبتي أنني لم أعد أتألم وقد نلت حريتي أخيرًا، وربحت الحب أخيرًا، وحصلت على حياتي الأبدية الخالصة .
اعلمي أنني لم أعد في ركاب الحاضرين، وأنني أصبحت مجرد ذكرى بلا جدوى إلى أحد إلا عندك أنت .
فإن كنتِ تتذكرينني فاعلمي أنني أحبك، وإن كنتِ قد نسيتيني فاعلمي أنني أعشقكِ .
اقرأي يا مريم روايتنا، احكي تفاصيلها وأعيدي كافة أحداثها على عقلك في أيامك الأخيرة أيام ما قبل النهاية، أقصد أيام ما قبل لقائنا .
اعلمي أن احتمالاتي لن تجدي وأن نسيانك لي أمر حتمي، فلا تقلقي ولا تبكي، اعلمي فقط أنك قد أحببتيني قديمًا وأنا عشقتكِ قديمًا والآن وبعد الآن" .
أخذت دموعها تتساقط ولم تستطع أن تكمل القراءة الآن وقد شعرت بالألم، لم يكن ألم الفراق بل ألم النسيان، فهي لم تستطع أن تتعرف على يوسف، لم تستطع أن تتذكره فقد حال مرضها بينها وبينه .
تتساءل في نفسها من يوسف، لا تتذكر عنه شيئًا سوى أنه قد كتب على يدها اسمه في حفلتهما الأخيرة بباريس وقد أخبرها ألا تنساه .
هي الآن تتألم لأنها لا تعلم عنه شيئًا إلا أنه قد أشعرها بالسعادة ولو للحظة فارقة في حياتها .
لم يعد أمامها على الرحيل إلا أيام قليلة جدًا، ربما اليوم وربما الغد ولربما بعد غد، فلن تفيد تلك الاحتمالات في وجه القدر الذي قرر الفراق والرحيل .
لكنها وقد آمنت بكلامه واعتقدت بكافة تفاصيله اعتقادًا حتميًا لا يقبل الشك، إنه حبيبها السابق، لم تكن تريد أي براهين على إيمانها، أرادت فقط أن يقترب موعد اللقاء كي تراه وتتذكره، ولكي يقرآ معًا روايتهما ويستفيضا من أحداثهما ويستعيدا

ذكرياتهما .
أكملت القراءة بعين دامعة ويد مرتجفة .
"لقد مزقني الدهر يا مريم وأنهى الأحلام ووضعها في أركان الماضي العتيق، لكنه لم يقدر على تمزيق الحب .
لا شيء يقوى على الحب أبدًا، حتى وإن تبددت أحلامي وأصبح الحلم في حياتي كابوسًا مميتًا، فقد ظل الحب هو روح الحياة وعنوان الوجود .
لم يكن الدين عائقًا لحبنا ولم يكن النسيان أيضًا، فحبنا باقٍ يا مريم ولن تنقطع أواصره أبدًا .
لقد أفنيت نصف حياتي معكِ، وأفنيت نصفها الآخر أبحث عنكِ، لم أكن أعلم أنك بجواري من البداية، وحين علمت أنك أنت يا مريم شاء القدر أن يختبرنا في حبنا وأن يبعدنا عن أماكننا قليلًا، حتى تظل أرواحنا متقابلة ومتجاورة في وجداننا .
ظللت أبحث عنكِ في كل وقت لم أيأس ولم تنقطع آمالي، وإن تبددت أحلامي فحدسي بكِ أنك ستبقين معي أبد الدهر .
أرسلت إليك روايتنا، لم يتبق بها سوى صفحات قليلة عليك أن تكمليها، وتسطري تلك القصة المتبقية من حياتنا .
لقد هزمت النسيان يا مريم وأي منا قد يهزم النسيان، لكنني قد أيقنت أن الحب لا يُنسى يا حبيبتي، الحب باقٍ إلى نهايات الخلود .
أما اللقاء فقد أخفقت في تحقيقه، ربما قُتلت آلاف المرات في سبيله، لم استسلم ولو للحظة واحدة والآن وقد ملأني الأمل أننا سنلتقي عما قريب،
اذكريني عند المسيح وسأذكركِ دومًا في سجودي .
لقد وعدتك ولم أنقض ميثاق الحب، لقد زهدت الحب دونك يا عزيزتي، وأطفأت قلبي لأي ضوء غير ضوئك، لقد عشت في عتمتي سجينًا وحيدًا، لم يتخللني إلا بضع ذكريات قد عشناها سويًا، وقد كتبنا تفاصيلها معًا، تلك الذكريات التي وهبتني حياة جديدة وصبرًا مديدًا .
إياكِ وأن تتعجلي اللقاء يا مريم، فاللقاء آتٍ لا محالة، فتلك هي الحقيقة الوحيدة التي لا تخضع لقانون الاحتمالات، إياكِ أن تيأسي وعيشي ما قد تبقى لكِ من أيام وأنت جالسة وسط الزهور، لا تعتزلي الزهور ولا تعتزليني .

تذكري فقط أن الشمس ستشرق وإن غاب غروبها، وأن الأمطار ستهطل يوم لقائنا عن قريب .
إنني الآن في انتظارك في موعدنا وقد جلبت معي باقة من الورود البنفسجية التي تعشقينها .
وأعلمي أنني قد اكتفيت بكِ حلمًا وقد اكتفيت بكِ حياةً.
وبكِ اكتفيت يا مريم .

تمت

فصلة

للنشر والتوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com

Facebook .Com/Fasla .Pub